آيات الاستفهام المُتَكَرِّر في القرآنِ الكريمِ
دراسة بلاغية

إعداد

د.محمد رضا حسن الحوري
الأستاذ المشارك في التفسير وعلوم القرآن

جامعة اليرموك-كلية الشريعة- قسم اصول الدين

ملخص البحث باللغة العربية

يقوم هذا البحث على دراسة إحدى عشرة آية من الآيات القرآنية المشتركة في ظاهرة أسلوبيّة هي الاستفهام المتكرر دراسة بلاغية، تقف مع المفردة لبيان سر اختيارها، ودقّة وضعها، ومع التراكيب لاستجلاء أسرارها وخصائصها ودلالاتها، ومع الصورة البيانية للكشف عن جمالها ورونقها.مستخدماً المنهج التحليلي الاستنباطي، مستعيناً على تحقيق ذلك بما أبدعه علماء التفسير والبلاغة في تحليلهم للآيات الكريمة.وقد توصل البحث إلى جملة من النتائج من أهمّها: أن لعلوم البلاغة دوراً عظيمَ الخطر في تأدية الأغراض الدينية التي من أبرزها موضوع البعث،كما أظهر البحث أن العلاقة بين علميْ التفسير والبلاغة علاقة تكامليّة.

الكلمات المفتاحية: البلاغة، الاستفهام، التفسير البلاغي

Abstract

This paper presents a study on specifically eleven (11) Qur'anic verses that share apparent similar occurrence of composition style, thatis repetitive inquisition from the view of expressive language, based on the meaning of each word used in order to accurately explain the secret behind their selection of usage and position within composition in details.

Also,zooming from their position within the phrases to further clarify thesecrets, characteristics and indirect referencetogether with the explanation of their appearance to discover the beauty and brilliance behind the selection of their position in usage. The methodology used is deductive analysis. The processes are realized by the aid of what had been creatively left by the scholars of exegesis and expressive linguistics in their analysis of the holy Qur'anic verses. The research had reached some results, which, among the important ones are: that thehighest levels of authenticated Qur'anic readings (al-Qira-aat al-Qur'aniyyah al-Mutawaatirah) dohave a great influence on the diverse expressive usage of composition styles. Also, it highlights the great role the expressive linguistics plays in conveyingthe deenious(religious) purposes that this research topic had emphasizedas well as it revealed the complementary connection between the science of exegesis and the science of expressive language

.
The keywords: expressive language, inquisition, figurative

المقدّمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله إيماناً ويقيناً وشكراً، وأصلّي وأسلّمُ على من رفعَ اللهُ له بالقرآنِ ذكراً، وآتاه من جوامعِ الكلمِ ما فاقَ كلَّ بيانٍ بشريٍّ شعراً ونثراً، وعلى آله الأطهار وصحبه الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدّين، أمّا بعدُ؛

فإنّ الدراسة البلاغية للنظم القرآني في آياته وسوره من أهمّ ما يجب أن يُعْنى به الدارسون لعلوم التفسير والبلاغة على حدٍّ سواء؛ وذلك إيماناً منّا أنّ المشتغلين بالدرس التفسيري أو البلاغي لا يفيدون من عمل علميٍّ مثلما يفيدون من دراسةٍ تتعلّق بنظم القرآن الكريم، وتستكشفُ أسرار الإعجاز فيه. خاصّة عند النظر إلى واقع مصنفات الدرس البلاغي المنصرفَةُ بكلّيّتها إلى الضبط والتقعيد؛ بغية إقامة صرح متميّز لهذا العلم؛ الأمر الذي حال دون الانتفاع الكامل من بلاغة القرآن في تطوير الدرس البلاغي منهجا وشواهد.

وقد حفلت كتب التفسير البيانية بكثير من الموضوعات البلاغية التي تناولها البلاغيون في مصنّفاتهم إلا أنّها جاءت في كتب التفسير أعمق تحليلا ، وأوسعَ نظرةً، وأكثرَ شمولاً. وإنّ مقارنة يسيرة بين مفسّر أو عالم له مصنّفان أحدهما في البلاغة والآخر في التفسير ليجد تباينا في العرض والتحليل والأمثلة. وليأخذ على سبيل المثال الرازي في كتابيْه (التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، ونهاية الإيجاز في البلاغة).

ومن هذا المنطلق جاءت هذه الدراسة لتمثل أنموذجا لدراسة بلاغية للنظم القرآني في آياتٍ جمع بينها أسلوب بلاغي عظيم هو أسلوب الاستفهام. ولمّا كان هذا الأسلوب مستعملاً في القرآن في مواضع كثيرة فقد وقع الاختيار على آيات تميّزت بظاهرة أسلوبية طريفة هي الاستفهام المتكرر سواءً كان ذلك واقعا في آية واحدة أو في آيتين متتاليتين. وقد كان عدد الآيات التي توافرت فيها هذه الظاهرة إحدى عشرة آية موزعة على تسع سور في موضوعين هما البعث، وفاحشة قوم لوط كما سيأتي بيانه في موضعه.

وقد لقيت هذه الآيات عناية كبيرة من فريقين من العلماء هما: علماء القراءات لما في هذه المواضع من اختلاف ظاهر في أدائهاعند القرّاء بين الخبر والاستفهام. وعلماء التفسير توجيها وتحليلاً لدلالة الآيات، وبيان مواضع الجمال وأسرار الإعجاز فيها.ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتتناول هذه الآيات من الوجهة البلاغية في محاولة للكشف عن الخصائص البلاغية في مفرداتها وتراكيبها.

مشكلة الدراسة

تتمثل مشكلة الدراسة في محاولتها الكشف عن الخصائص البلاغية في آيات الاستفهام المتكرر في القرآن، ويمكن صياغتها في السؤال الآتي:ما الخصائص البلاغية في آيات الاستفهام المتكرر؟

حدود الدراسة:ستلتزم هذه الدراسة بالآيات الإحدى عشرة التي توافرت فيها ظاهرة الاستفهام المتكرر، ودراستها دراسة بلاغية

الدراسات السابقة: لم أقف على من درس هذه الآيات دراسة بلاغية كاشفاً عن خصائصها في المفردات والتراكيب إلا ما وجدته في كتاب الدكتور عبد العظيم المطعني (التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم) وهذا الكتاب جليل القدر، عظيم النفع في بابه استوعب جميع الآيات التي ورد فيها أسلوب الاستفهام في القرآن على ترتيب السور في القرآن. ولكن دراسته لآيات الاستفهام المتكرر جاءت مفرّقة مبعثرة غير جامعة للخصائص المشتركة بينها. وهو ما انعقدت دراستنا له.

منهج الدراسة:

قامت الدراسة على المنهج التحليلي الاستنباطي للآيات القرآنية تحليلا لمفرداتها وتراكيبها، واستنباطا للأسرار البلاغية الكامنة فيها

خطّة الدراسة:وقد جاءت الدراسة في مقدمة ومبحثين وخاتمة على النحو الآتي:

المقدّمة

المبحث الأوّل: الاستفهام المتكرر مفهومُه ومواضعُه ومذاهب القرّاء فيه، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأوّل:مفهوم الاستفهام المتكرر لغة واصطلاحاً.

المطلب الثاني: مواضع الاستفهام المتكرر في القرآن الكريم

المطلب الثالث:مذاهبُ القرّاء فيه

المبحث الثاني:الخصائص البلاغية لآيات الاستفهام المتكررُ في القرآن وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول :الخصائص البلاغية للمفردات
المطلب الثاني: الخصائص البلاغية للتراكيب
المطلب الثالث: الخصائص البلاغية للصور البيانية

الخاتمة:وفيه عرض لأهمّ النتائج التي توصّلت إليها الدّراسة

المبحث الأوّل: الاستفهام المتكرر مفهومُه ومواضعُه ومذاهب القرّاء فيه

ينعقد هذا المبحث للحديث عن مفهوم الاستفهام المتكرر ومواضعه في القرآن،وذكر الموضوعات التي وظّف فيها، مع ذكر مذهب القراء في أدائه.

المطلب الأوّل:مفهوم الاستفهام المتكرر لغة واصطلاحاً.

أوّلا: الاستفهام لغة :

الاستفهام :" الأصل فيه طلب الإفهام والإعلام لتحصيل فائدة علمية مجهولة لدى المستفهم ,وقد يراد بالاستفهام غير المعنى الأصلي له , ويستدل على المعنى المراد بالقرائن القولية أو الحالية.(الميداني،البلاغة العربية،٢٥٨/١)

ثانياً: معنى المتكرر في اللغة:

التكرار لغة : "الكر الرجوع مصدر للفعل كرّ عليه يكرّ كرّا وكرورا وتكرارا عطف, وكرّ عنه رجع , وكرّر الشيئ وكرره أعاده مرة بعد أخرى.." (ابن منظور ، لسان العرب،١٣٥/٥(كرر).والتكرير: " أبلغ من التأكيد وهو من محاسن البلاغة " (السيوطي، الإتقان في علوم القرآن،٧٠/٣)

ثالثاً: الاستفهام المتكرر اصطلاحا

لم نقف في كتب علماء القراءات على من عرّف هذا المصطلح، وإن كانوا قد أشاروا إليه ، وعرّفوا بمواضعه، ويمكن أن نذكر تعريفا لهذا المصطلح نستمدّه من واقع الأمثلة فنقول: الاستفهام المتكرر هو: كل موضع تكرر فيه لفظ الاستفهام على التعاقب في آية واحدة , أو آيتين متتاليتين.

المطلب الثاني: مواضعه في القرآن الكريم

أولا: مواضعه:

قال السمين الحلبي: واختلف القراء في هذا الاستفهام المكرر اختلافاً منتشراً، وهو في أحد عشر موضعاً في تسع سور من القرآن ولا بد من تعيينها، وبيان مراتب القرَّاء فيها، فإنَّ في ضبطها عُسْراً يَسْهُل بعَوْنِ الله تعالى: (ينظر: الدر المصون،١٧/٧)

١. (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) – سورة الرعد (٥)
٢. (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) سورة الإسراء (٤٩)
٣. (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) سورة الاسراء (٩٨)
٤. (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) – سورة المؤمنون (٨٢)
٥. (ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٢٨) أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) – سورة العنكبوت (٢٩-٢٨)
٦. (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وءاباؤنا أئنا لمخرجون) – سورة النمل (٦٧)

٧. (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون) – سورة السجدة (١٠)
٨. (أئذا متنا وكنّا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) – سورة الصافات (١٦)
٩. (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) – سورة الصافات (٥٣)
١٠.(وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) – سورة الواقعة (٤٧)
١١.(يقولون أئنا لمردودون في الحافرة (١٠) أئذا كنا عظاما نخرة) – سورة النازعات (١١-١٠)

وإذا نظرنا في الآيات السابقة فيلحظ ما يأتي:

أ-أن جميع هذه المواضع من قول الكفّار، إلا موضع العنكبوت فإنه من قول لوط -عليه السلام-.

ب-أنها اجتمع فيها الاستفهامان في آية واحدة إلا موضعي العنكبوت والنازعات،فقد جاء الاستفهامان في آيتين

ج-أن الاستفهام الأول مصدّر بـ(إذا) والثاني بـ(إنا) ما عدا العنكبوت فقد جاء في موضعيها (إنكم) ، وما عدا النازعات كذلك فقد تقدم في الاستفهام الأول (إنا) على (إذا)، وفي موضع الصافات الثاني (أءنك) بدل (أءنا)

د-أن جميع المواضع ما عدا العنكبوت والواقعة فيها ثلاث قراءات: الاستفهام فيهما، أو في الأول دون الثاني، أو في الثاني دون الأول.أما العنكبوت والواقعة ففيهما قراءتان فقط كما سيأتي.

هـ-لم يقرأ أحدٌ بالإخبار في الموضعين، فكل من أخبر في موضع لا بد أن يستفهم في الأخر.(أخذت النقاط السابقة من الجيلي علي أحمد، اختلاف القراءات بين الحذف والإثبات في ستة من حروف المعاني،ص٩١-٩٢)

و-أن هذه المواضع جميعها دارت على موضوعين فقط , تركز في الأول وجاء الثاني في موضع وحيد.

أما الموضوع الأول: فهو البعث فجاء على لسان الكفار. أما الثاني فهو فاحشة اللواط وجاء على لسان سيدنا لوط مستنكرا على قومه.والاستفهام في هذين الموضوعين جاء استفهاما استنكاريا , فصيغة هذا النوع من الاستفهام تأتي إذا كان المستفهم مستنكرا للموضوع مستبعدا لإمكانية وقوعه وغير متخيل أن يكون واقعا البتة.

فالكفار في كل حين غير معتقدين بالبعث والحساب بل غير متصورين له وإلا لانتهى الإشكال في ذهنهم, يقول سيد قطب :" الإيمان بالبعث والحشر وبالحساب والجزاء عنصر أصيل في العقيدة لا يستقيم منهجها في الحياة إلا به فلا بدّ من عالم مرتقب يكمل فيه الجزاء، ويتناسق فيه العمل والأجر ويتعلق به القلب وتحسب حسابه النفس ويقيم الإنسان نشاطه في هذه الأرض على أساس ما ينتظره هناك. ولقد وقفت البشرية في أجيالها المختلفة ورسالاتها المتوالية موقفا عجيبا من قضية البعث والدار الآخرة على بساطتها وضرورتها، فكان أعجب ما تدهش له أن ينبئها رسول أن هناك بعثا بعد الموت وحياة بعد الدثور , ولم تكن معجزة بدء الحياة الواقعة التي لا تنكر تلهم البشرية أن الحياة الأخرى أهون وأيسر ومن ثمّ كانت تعرض عن نذير الآخرة وتستمرىء الجحود والمعصية وتستطرد في الكفر والتكذيب "(سيد قطب، في ظلال القرآن،٥/٢٦٦١) ومن الأساليب التي عبر بها القرآن عن موقف الكفار في تكذيب هذه الحقيقة أسلوب الاستفهام المتكرر.وهو استفهام إنكاري تكذيبي- وقد استخدم بعدة عبارات مدلولها واحد ,يقول ابن عاشور : "كل آية حكت أسلوبا من مقالهم "(ابن عاشور،التحرير والتنوير،٢٠/٢٥) وكذا سيدنا لوط كان مستنكرا مستبعدا أن يصل قومه إلى هذا المستوى من الانحطاط المتصور في العلاقات المثلية بين الرجال؛ لأن الفطرة السليمة تأباه والعقل الصريح يرفضه والنفس السوية تشمئز منه حتى لو لم يكن في النفس بعض من إيمان , فجاء خطابه لهم بهذا الشأن بصورة الاستفهام التوبيخي التقريعي على مثل هذه الفعلة الشنيعة.

ز- كما يوجد بين هذه المواضع اختلاف في الرسم حيث رسمت كلها بهمزة واحدة سوى ثاني العنكبوت (وأئنا) في النمل وفيها قراءة إننا. (وأئذا) في الواقعة

المطلب الثالث:مذاهبُ القرّاء فيه

في المواضع التي تتحدث عن البعث جميعها للقراء ثلاث طرق في الأداء إجمالا – مع العلم أن القاريء قد يقرأ في أحد المواضع بإحدى هذه الطرق، وليس شرطا أن يلتزم وجهة واحدة في الأداء، وقد يغاير في الأداء بين موضع وآخر–:

الأول : الإخبار في الأول والاستفهام في الثاني

الثاني : الاستفهام في الأول والإخبار في الثاني

الثالث : الاستفهام فيهما

أما الموضع الذي تحدث عن اللواط فقريء بصورتين فقط :الأولى : الإخبار في الأول والاستفهام فيهما

الثانية : الاستفهام فيهما. (فلم يرد هذا الموضع بالاخبار في الثاني)؛ ولذا جاء مرسوما بطريقة لا تحتمل أن يُقرأ بالإخبار (أئنّكم)

وبيانها كالآتي :"اختلفوا في الإخبار بالأول منهما والاستفهام في الثاني وعكسه والاستفهام فيهما فقرأ ابن عامر وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني من موضع الرعد وموضعي الإسراء وفي المؤمنون والسجدة والثاني من الصافات، وقرأ نافع والكسائي ويعقوب في هذه المواضع الستة بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني.

وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما.وأما موضع النمل فقرأه نافع وأبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني.

وقرأه ابن عامر والكسائي بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني مع زيادة نون فيه فيقولان (أينا لمخرجون)

وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما وأما موضع العنكبوت فقرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وابن عامر ويعقوب وحفص بالإخبار في الأول وقرأ الباقون– أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وشعبة– بالاستفهام , وأجمعوا على الاستفهام في الثاني. وأما الموضع الأول من الصافات فقرأه ابن عامر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني

وقرأه نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني. وقرأ الباقون بالاستفهام فيهما.

وأما موضع الواقعة فقرأه أيضاً نافع والكسائي وأبو جعفر ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني،

وقرأه الباقون بالاستفهام فيهما فلا خلاف عنهم في الاستفهام في الأول؛ فهو مرسوم (أئذا) فلا يحتمل وجه الاستفهام، وأما موضع النازعات فقرأه أبو جعفر بالإخبار في الأول والاستفهام في الثاني. وقرأه نافع وابن عامر والكسائي ويعقوب بالاستفهام في الأول والإخبار في الثاني.

وقرأه الباقون بالاستفهام فيهما. وكل من استفهم في حرف من هذه الاثنين والعشرين فإنه في ذلك على أصله من التحقيق والتسهيل وإدخال الألف.(البنا الدمياطي، اتحاف فضلاء البشر،ص٦٩)

(جدول توضيحي)

السورة	الموضع الأول	الموضع الثاني	الموضعان معا
الرعد،موضعا الإسراء، المؤمنون،السجدة، الموضع الثاني في الصّافّات	ابن عامر، أبو جعفر: بالإخبار نافع ،الكسائي،يعقوب: بالاستفهام	ابن عامر، أبو جعفر: بالاستفهام نافع ،الكسائي،يعقوب: بالإخبار	الباقون: بالاستفهام
النمل	نافع ،أبو جعفر: بالإخبار ابن عامر،الكسائي بالاستفهام	نافع ،أبو جعفر: بالاستفهام ابن عامر،الكسائي بالإخبار	الباقون: بالاستفهام
العنكبوت	نافع،أبو جعفر،ابن كثير،ابن عامر،يعقوب، حفص: بالإخبار أبو عمرو،وحمزة، الكسائي،خلف، شعبة: بالاستفهام	أجمع كلُّ القرّاء على قراءة الموضع الثاني بالاستفهام	
الموضع الأول في الصّافات	ابن عامر: بالإخبار نافع، الكسائي،أبو جعفر، يعقوب: بالاستفهام	ابن عامر: بالاستفهام نافع، الكسائي،أبو جعفر، يعقوب: بالإخبار	الباقون: بالاستفهام
الواقعة	جميع القرّاء: بالاستفهام	نافع، الكسائي،أبو جعفر، يعقوب: بالإخبار الباقون: بالاستفهان	
النازعات	أبوجعفر:بالإخبار نافع، ابن عامر، الكسائي، يعقوب: بالاستفهام	أبو جعفر: بالاستفهام نافع، ابن عامر، الكسائي، يعقوب:بالإخبار	الباقون

المبحث الثاني:الخصائص البلاغية لآيات الاستفهام المتكررُ في القرآن

سأتناول في هذا المبحث الخصائص البلاغية لنظم آيات الاستفهام المتكرر كاشفاً عن أسرار التعبير في مفرداتها وتراكيبها وصورها البيانية على النحو الآتي:

المطلب الأول :الخصائص البلاغية للمفردات

سأتحدّث في هذا المطلب عن سرّ اختيار الألفاظ المذكورة في الآيات الكريمة من حيثُ مادّتُها وصيغتها، وتعريفها وتنكيرها، ومناسبتها لسياقها، إيماناً أنّ كلَّ كلمة في القرآن هي في الموضع الأليق والأمثل بها بحيث لا تغني عنها كلمة أخرى فأقول:

إنّ المتدبر للآيات الكريمة يجد أنّ بينها فروقا في اختيار الألفاظ المعبّرة عن إنكار المشركين لقضية البعث، فقد نقل عنهم القرآن حُجَجَهم وشبهاتِهم على إنكار البعث: بكونهم تراباً كما في قوله تعالى: (وإن تعجب فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق جديد) – سورة الرعد (٥) ، وتارةً بكونهم عظاماً ورفاتاً كما في قوله تعالى: (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) سورة الإسراء (٤٩) ، وتارة بكونهم تراباً وعظاماً كما في قوله تعالى: (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) – سورة المؤمنون (٨٢)، وتارةً بكونهم عظاماً نخرة كما في قوله تعالى : (أئذا كنا عظاما نخرة) – سورة النازعات (١١)،، وتارة يعبرون عن ذلك بالضلال في الأرض كما في قوله تعالى: (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد) سورة السجدة (١٠)

وإنّ نظرة أخرى في الآيات الكريمة توقف المتدبر كذلك على اختلافٍ في الألفاظ التي عبّروا بها عن البعث كقولهم: أئنا لفي خلق جديد، وقولهم: أئنا لمبعوثون خلقا جديدا ، وقولهم: أئنا لمخرجون، وقولهم: أئنا لمدينون، وقولهم: أئنا لمردودون في الحافرة. وقد عزا بعض المفسّرين التغاير في هذه العبارات إلى تعدد القائلين واختلافهم في عباراتهم؛ فنقل القرآن عبارة كلّ فريق؛ وهذا الكلام صحيح إلى حدٍّ بعيد إلا أنه لا يجيب عن سؤال قائمٍ في النفس حول سرّ اختيار كلّ عبارة في سورتها وموضعها.وهذا ما سنتحدّث عنه في ما يأتي:

أولا : التعريف والتنكير

عني المفسّرون والبلاغيون بالتعريف والتنكير عناية كبيرة، لما لهما من فوائد عظيمة،وأسرار لطيفة، وأثر بالغ في النفس.(ينظر: المراغي: علوم البلاغة،ص١١٢، فضل حسن عباس، البلاغة فنونها وأفنانها–علم المعاني،ص٣٠٧–٣٠٨) .وسأذكر هنا بعض الأسرار التي أفادها أسلوب التعريف والتنكير الوارد في الآيات الكريمة

١–**التعريف:**المعارف أقسام مختلفة هي:(العلم والضمير، والاسم الموصول، واسم الإشارة ، والمعرف بأل، والمضاف إلى واحدة منها) (ينظر:ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، ج١،ص٨٦). ومن أنواع المعارف الواردة في الآيات الكريمة:

التعريف بالإضافة : إنّ إضافة (الآيات) إلى ضمير العظمة في قوله تعالى: (بآياتنا) لأمرين: بيان عظمة هذه الآيات وخطورة شأنها، ولبيان قبح إنكار المشركين لها وفظاعته مع عظمتها.

التعريف باسم الإشارة وتكرارها :جاء التعبير باسم الإشارة الموضوع للبعيد في قوله تعالى: (أُولئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْناقِهِمْ وَأُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ هُمْ فِيها خالِدُونَ) لغرضين بلاغيين،أولهما: للإيذان بأنهم باعتبار ما ذكر قبل اسم الإشارة من أوصاف لاصقة بهم كانوا جديرين بأن يوصفوا بما بعد اسم الإشارة وهو الكفر،وثاني الغرضين:للإشعار ببعد هؤلاء المنكرين تنزيلا لبعد المكانة منزلة بُعد المكان.(الشوكاني،فتح القدير،ج٣،ص٨١، وابن عاشور، التحرير والتنوير، ٩٠/١٣، والخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن ج٧،ص٧٣،المطعني،التفسير البلاغي للاستفهام،ج٢،ص١٥٠-١٥١)

وذهب أبو حيان إلى أن ذكر اسم الإشارة وتكريره للتقرير يقول: " أُولَئِكَ إِشَارَةٌ إِلَى قَائِلِ تِلْكَ الْمَقَالَةِ، وَهُوَ تَقْرِيرٌ مُصَمَّمٌ عَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ، فَلِذَلِكَ حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ إِذْ عجزوا قدرته عن إِعَادَةِ مَا أَنْشَأَ وَاخْتَرَعَ ابْتِدَاءً. وَلَمَّا حَكَمَ عَلَيْهِمْ بِالْكُفْرِ فِي الدُّنْيَا ذَكَرَ ما يؤولون إِلَيْهِ فِي الْآخِرَةِ عَلَى سَبِيلِ الْوَعِيدِ، وَأَبْرَزَ ذَلِكَ فِي جُمْلَةٍ مُسْتَقِلَّةٍ مُشَارٌ إِلَيْهِمْ"(أبوحيان، البحر المحيط،٦/ ٣٥٢)

وبيّن الشيخ عبد الكريم الخطيب أنّ في هذا التكرار " فضحاً لهم على رءوس الأشهاد، وشدّاً للوثاق الممسك بهم من أعناقهم، حتى لا يفلتوا وحتّى لكأن كل إشارة من تلك الإشارات الثلاث، طوق من حديد، يطوّقون به.. وإن ذلك لسمة من السّمات الدّالة عليهم بين أهل المحشر، فليس ثمّة شك فى أمرهم، أو فى التعرف على ذواتهم، وقد وسموا بتلك السمات الفاضحة.وفى الإشارة إليهم بأن الأغلال فى أعناقهم، وبأنهم أصحاب النار، مع أنهم لم يبعثوا بعد، ولم يساقوا إلى جهنم بعد- حكم قاطع من الله عليهم بهذا، ولكنه مؤجل التنفيذ إلى يوم البعث" (الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن ج٧،ص٧٣)

افتتحت الآية الثانية من سورة الإسراء باسم الإشارة (ذلك) للبعيد في قوله تعالى:(ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)العائد على قوله تعالى: (وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا) الاسراء (٩٧) للدلالة على تهويل شأن الجزاء المرصود لهم وتبشيعه بتنزيل بعد المكانة منزلة بعد المكان. كما أنها لما تعطف على ما قبلها لأنها بمثابة الفذلكة والتلخيص للآية التي قبلها، وفي هذا لون من ألوان الإيجاز.

التعريف بالاسم الموصول وصلته :إيثار الآية التعبير بالاسم الموصول وصلته في قوله تعالى: (أولئك الذين كفروا بربهم) لبيان علّة الحكم والجزاء، وأنهم استحقوا ذلك الجزاء لأنهم اختاروا الكفر.

إيثار النظم الكريم التعبير عن الكافرين بالاسم الموصول في قوله تعالى:(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً وَآبَاؤُنَا أَإِنَّا لَمُخْرَجُونَ) المؤمنون ٨٢ لما في الموصول من الإيماء إلى علة قولهم هذه المقالة وهي ما أفادته الصلة من كونهم كافرين فكأنه قيل: وقالوا بكفرهم أإذا كنا ترابا..إلى آخره استفهاما بمعنى الإنكار (ابن عاشور، التحرير والتنوير١٩ / ٢٩٧)

٢- **فوائد التنكير**: وردت في الآيات الكريمة كلمات منكّرة، وقد ذكر المفسرون لهذا التنكير أغراضا وأسرارا منها:

أ- للتهويل والتعظيم،وذلك في قوله تعالى: (وإن تعجب فعجبٌ) قال البقاعي: لا تتناهى درجاته في العظم (نظم الدرر في تناسب الآيات والسور (١٠/ ٢٨٢)، وينظر: التفسير الوسيط لطنطاوي (٧/ ٤٤٧-٤٤٥)

ب–وذهب ابن عاشور إلى أن التنكير في الآية للتنويع لِأَنَّ الْمَقْصُودَ أَنَّ قَوْلَهُمْ ذَلِكَ صَالِحٌ لِلتَّعْجِيبِ مِنْهُ، ثُمَّ هُوَ يُفِيدُ مَعْنَى التَّعْظِيمِ فِي بَابِهِ تَبَعًا لِمَا أَفَادَهُ التَّعْلِيقُ بِالشَّرْطِ مِنَ التَّشْوِيقِ.(ابن عاشور،التحرير والتنوير ١٣/ ٩٠)

ج– التحقير: وذلك في تنكير كلمتي (ترابا وعظاما) (عظاماً ورفاتاً) وهذا التنكير جاء متوائما مع مقصد الاستبعاد والإنكار لقضية البعث.

د– .وقد وردت كلمة (خلقٍ) في قوله تعالى: (أإنا لفي خلق جديد) منكرة؛ وذلك لأن سياق الإنكار والنفي يلائمُه التنكير.

ثانيا:الدقة في اختيار الكلمات مادّةً وصيغة.

تميّزت المفردة القرآنية بخصائص معجزة لا تتوافر في أيّ عمل أدبي، وإنّ من أبرز هذه الخصائص الدّقة في الوضع والاختيار مادّة وصيغة.(ينظر:السلامي، عمر،الإعجاز الفني في القرآن،ص٧٢وما بعدها) وفيما يأتي بيان لبعض أسرار التميز في المفردة القرآنية المستخدمة في الآيات الكريمة

إيثار المضارع (تعجب) لأن المراد بالتعجيب ما يقع منه حال الخطاب للنبي–صلى الله عليه وسلم–،وأما علة صياغة موقف المشركين من البعث بِصِيغَةِ التَّعْجِيبِ؛ لِأَنَّ الْأَدِلَّةَ السَّالِفَةَ لَمْ تَبْقَ عُذْرًا لَهُمْ فِي ذَلِكَ فَصَارَ فِي إِنْكَارِهِمْ مَحَلُّ عَجَبِ الْمُتَعَجِّبِ.(ابن عاشور، التحرير والتنوير، ١٣/ ٨٩)

إيثار النظم القرآني استخدام كلمة (تراباً) في احتجاج المشركين على إنكار البعث، والسرُّ في هذا الإيثار يتضح من أمرين: **الأول:** أن القرآن نقل لنا حجج المشركين في إنكارهم للبعث كما نطقوا بها للرد عليها. وهذه علة عامّة لا تكفي وحدها في الكشف عن سرّ اختصاص سورة الرعد بهذه اللفظ دون غيره .**الثاني:** من خلال الوقوف على الدلالة اللغوية لهذه المفردة وربطها بسياقها.قال ابن فارس: التاء والراء والباء أصلان: أحدهما التّراب وما يشتقّ منه، والآخر تساوي الشّيئين. فالأول التُّراب، ويقال تَرِبَ الرجل إذا افتقَرَ كأنّه لصِق بالتُّراب، ويقال ريحٌ تَرِبَةٌ إذا جاءَت بالتُّراب.وأمّا الآخر فالتِّرب الخِدْن، والجمع أترابٌ. ومنه التَّرِيب، وهو الصَّدر عند تساوي رؤوس العظام. (ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ، ج١،ص٣٤٦، (ترب)، وينظر: الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص١٦٥).وتدور المادة اللغوية لهذه المفردة على شيئين: التراب المعروف، والثاني: التساوي بين الشيئين.ولعلّ المشركين في استخدامهم لهذه الكلمة في سياق إنكار البعث أرادوا المعنيين: حقيقة التراب، وأرادوا بيان أنه لا حياة فيه،كما أرادوا حقيقة المساواة بين البشرية في هذا المصير. أي أنّ جميع الناس سيؤولون إلى مصيرٍ واحد ونهاية واحدة لا عَودة بعدها.واستخدام كلمة التراب هنا جاء منسجما مع سياق التعجيب من حال هؤلاء المنكرين الذين تعجّبوا من أمر ما كان لهم أن يتعجبوا منه؛إذ لو تعقّلوا قليلا، ورجعوا إلى أنفسهم لتبين لهم سوء فهمهم، وخطأ موقفهم من إنكار البعث؛ وذلك أنّ الله خلقهم من العدم ولم يكونوا ترابا ،فكيف يستحيل عليه أن يعيدهم بعد الموت كما كانوا؟! فالذي أنكروه بدهية من بدهيات العقول تدعو إلى التعجب من حماقتهم.

إن إيثار التعبير بالفعل الماضي دون المضارع في قوله تعالى:(ذلك بأنهم كفروا) لبيان رسوخهم في الكفر، وتحققهم به.

انفردت سورة السجدة بذكر جملة (ضللنا في الأرض) تعبيراً عن الفناء، واستعمال الفعل (ضللنا) للدلالة على الفناء والذهاب هو استعمال مجازي. فكلمة الضلال مستعارة لمعنى (دفنا) بجامع الاختفاء في كلّ منهما أو هي كناية عن الدفن في الإرض،قال ابن فارس في معجمه:" إنّ الضاد واللام أصلٌ صحيحٌ يدلُّ على معنىً واحد، وهو ضَياع الشيء

وذهابُهُ في غيرِ حَقِّه. وممّا يدُلُّ على أنّ أصل الضّلاَل ما ذكرناهُ، قولُهم أُضِلّ الميّتُ، إذا دُفِنَ. وذاكَ كأنَّهُ شيءٌ قد ضاع. ويقولون: ضَلَّ اللَّبَنُ في الماءِ، ثم يقولون استُهْلِكَ" (ابن فارس،معجم مقاييس اللغة،ج٣،ص٣٥٦(ضل))والمعنى: إِذَا تَفَرَّقَتْ أَجْزَاءُ أَجْسَادِنَا فِي خِلَالِ الْأَرْضِ وَاخْتَلَطَتْ بِتُرَابِ الْأَرْضِ. (ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٢١/ ٢١٩) واستخدام كلمة الضلال في هذه السورة دون غيرها ، جاء متناسبا مع سياق الحديث عن خلق الإنسان قبلها وهي قوله تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ (٧) ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ (٨) ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ) فكأنهم أرادوا القول: فإذا رجعنا بعد دفننا إلى الأرض التي جئنا منها، وتفرّقت فيها أجزاؤنا وضاعت فيها ملامحنا أبعد حصول هذا نرجع خلقاً جديدا.

ورد حرف الجر (في) الآية مرّتين.مرة كانت للظرفية المكانية، والثانية كانت للظرفية المجازية(ابن عاشور، التحرير والتنوير: ٢١/ ٢١٩) وفي كلّ مرّة كان له وظيفته ورسالته،أما دلالته في الموضع الأول: (ضللنا في الأرض) فهي الاحتراس لدفع توهم أنّ الضلال بمعنى الضياع والذهاب هو في باطن الأرض لا على ظهرها.كما كان في ذكره مبالغة في تصوير المعنى، وكأنهم يريدون أن يقولوا: صارت أجسادنا تراباً لا يميز بينها وبين تراب الأرض.ومما يؤكد هذا المعنى تعريف كلمة (الأرض) المفيد لمعنى الجنسية،بمعنى إذا دفنّا وأصبحنا من جنس تراب الأرض. وفي قولهم هذا استبعاد شديد لمسألة البعث. وأما دلالته في قوله تعالى: (أإنا لفي خلق جديد) فقد دلَّ على التفاوت بين الحالتين حالة الضلال في الأرض وحالة الخلق الجديد. فقد رسم السياق القرآني صورتين متقابلتين متضادتين لإظهار مدى تعنت هؤلاء الكافرين.((المطعني،التفسير البلاغي للاستفهام،ج٣،ص٢٧٠)

يلحظ أن الآيات جميعها آثرت العدول إلى اسم المفعول (لمردودون،لمخرجون ،لمدينون، لمبعوثون) بدلا من الفعل، حتى لا يقروا بوجود خالق قادر على بعثهم وإعادتهم مرّة أخرى،فهم توصّلوا بنفي الفاعل إلى نفي الفعل؛ فيكون ذكرهم للفعل والفاعل تكذيبا لدعواهم، وإبطالا لحجتهم.

كما يلحظ في الآيات أنه جمع العظام وأفرد التراب؛ وذلك أنهم قصدوا من الجمع تفرّق العظام وتفتُّتَها.ولو أفرد لفات هذا القصد واتجه إلى كونها مجتمعة؛ وهذا غير مراد ولا مقصود.

إن (تصدير الجملة الأولى بالفعل المضارع (يقولون) يقولون أئنا لمردودون في الحافرة (١٠) أئذا كنا عظاما نخرة) – سورة النازعات، دون أن يتقدّم ضمير الجماعة (الواو) مرجع صريح. يدلّ على أنّ القائلين بهذا القول معروفون،وأنهم قد اشتهروا به شهرة تغني عن ذكرهم صراحة؛ فيكون من باب تنزيل شهرتهم بإنكار البعث منزلة ذكرهم الصريح؛ ومن هنا صحّ عود الضمير إليهم.أما عن سرّ إيثار الفعل المضارع فهو للتسجيل عليهم بتكرار هذا القول منهم، للتشنيع عليهم والتهكم بهم

ومما يلحظ في هذه الآية الكريمة تعدية اسم المفعول (لمردودون) بـ(في) مع أنّ الظاهر تعديته بـ(إلى)،وسر هذا العدول هو لبيان تمكنهم في مسألة إنكار الحياة بعد الموت، وإنكار أن يعودوا أحياء مستقرين في الحياة كما كانوا قبل موتهم.(المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام،٣٤١/٤)

إن سرّ عدول المشركين إلى اسم المفعول (لمبعوثون) عن التعبير بالفعل لئلا يصرحوا بالفاعل الذي هو الله لو عبّروا بالفعل. والذي دفعهم إلى هذا العدول هو الجحود والاستكبار عن التلفظ باسم الله .

إن لاقتران العظام والرفات سرّا لطيفا؛ وذلك أنّنا في الآيات التي ندرسها لا نجد ذكرا للرفات وحده،كما لا نجد ذكرا للعظام وحدها دون اقتران أو وصف؛ وعلّة ذلك أن كلمة العظام تحمل في دلالتها اللغوية معنى القوّة. قال ابن فارس:"العين والظاء والميم أصلٌ واحد صحيح يدلُّ على كِبَر وقُوّة. وعَظْمةُ الذِّراع: مُستغلَظُها"(ابن فارس،معجم مقاييس اللغة،ج٤،ص٣٥٥،(عظم)). ولمّا كانت دلالتها بهذا المعنى لم ترد وحدها لأن ذكرها على هذه الصورة سيؤدي خلاف المقصود وهو الدلالة على الضعف والوهن وانعدام الحياة. وهو أمر منافٍ لسياق احتجاج المشركين على إنكار البعث؛ لذا وجدنا أن لفظ العظام جاء مقترنا دائماً بلفظ آخر كالتراب والرفات، أو موصوفا بما يدلّ على ضعفه كقوله تعالى: (أإذا كنا عظاما نخرة).وهناك شيء آخر وراء عدم ذكر العظام وحدها وهو أن العظام مهما بليت إلا أنه سيبقى فيها آثارٌ للحياة؛لذا اقترنت بغيرها استبعادا لوقوع البعث وإمعانا في الكفر.

وأمّا لفظ الرفات–فكذلك– فلم يذكر وحده ؛ وذلك لأن الرفات لا يكون إلا بوجود شيء قبله، فهو تابع لوجود شيء قبله مسبوق به، كالعظام والأشجار وغيرها –وهذا ما نستوحيه من الدلالة اللغوية لهذه المفردة: قال ابن فارس:" (رفت) الراء والفاء والتاء أصلٌ واحد يدلُّ على فَتٍّ ولَيٍّ. يقال رفَتُّ الشّيءَ بيدي، إذا فتَتَّه حتّى صارَ رُفاتا. وارْفَتَّ الحَبْلُ، إذا انقطع. واشتُقّ منه رفَتَ عُنقَه، إذا دقَّها وَلَفَتَها ولوَاها. والرُّفَاتُ والْفُتَاتُ : ما تكسّر وتفرّق من التّبن ونحوه ، قال تعالى : وَقالُوا أَإِذا كُنَّا عِظاماً وَرُفاتاً[الإسراء / ٤٩] "،(ابن فارس، معجم مقاييس اللغة،٤٢٠/٢ (رفت)) واستعير الرُّفَاتُ للحبل المنقطع قطعة قطعة(الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن،ص ٣٥٩) .والمعنى المحوري الذي تدور عليه المادة: تفتت الشيء الهش الأثناء وانسحاقه دُقاقا.(محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم، ٢/ ٨٤٥.) ومن هنا ندرك السرّ وراء تأخر الرفات على العظام، وتقديم العظام عليه دائما؛ لأن الرفات لا يكون إلا بعد انتهاء مرحلة العظام. وليس الأمر كذلك مع التراب إذ قد يذكر وحده، كما يأتي متقدما على العظام كما سيأتي بيان ذلك في مواضعه.وقد بيّن العلماء أنّ هذه الصيغة (فُعَال) يَدُلُّ عَلَى مَفْعُولِ أَفْعَالِ التَّجْزِئَةِ مِثْلَ الدُّقَاقِ وَالْحُطَامِ وَالْجُذَاذِ وَالْفُتَاتِ .(ينظر: الرازي ، مفاتيح الغيب ٢٠/ ٣٥٢، الشوكاني، فتح القدير ٣/ ٢٧٨، ابن عاشور، التحرير والتنوير (١٥/ ١٢٤)، الشعراوي، تفسير الشعراوي،١٤/ ٨٥٩٥)

١–في آية النمل: (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وءاباؤنا أئنا لمخرجون) إظهار في موضع الإضمار، إذ كان مقتضى الظاهر أن يقول: (وقالوا) لتقدم الحديث عنهم، ولكن أوثر الإظهار والتعبير بالاسم الموصول لما فيه من التسجيل عليهم بأقبح الأوصاف وهو الكفر.كما أنّ هذا التعبير يشير إلى أنّ المتحدَّث عنهم لم يعرفوا بشيء يميزهم إلا الكفر، وفي هذا زيادة في التشنيع عليهم.نلحظ أنّ آية النمل اكتفت بذكر التراب، في حين أنّ الآيات الأخرى قرنته بالعظام، وعلّة ذلك أنهم أرادوا المبالغة في بيان فنائهم تمهيدا لأنكارهم الإخراج. وممّا يقوّي ما ذكر أنهم ذكروا في هذه الآية آباءهم الذين مضَوا وفنَوا منذ زمن استبعادا منهم لوقوع البعث؛ فكأنهم أرادوا القول:إن آباءنا قد ماتوا وذهبوا ولم يرجعوا ومصيرنا كمصيرهم فلا رجعة ولا خروج.ويصدّق هذا قوله في الآية التالية لهذه الآية:(لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) النمل (٦٨)

٢–إذا نظرنا في آية الواقعة: (وكانوا يقولون أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) فإننا سنجد أن الزمان الذي قيلت فيه غير الزمان الذي قيلت فيه أكثر الجمل السابقة.وذلك أن زمانها هو الآخرة، وزمان الجمل الأخرى هي الدنيا.فآية الواقعة تحكي لنا ما سيقولونه يوم القيامة ومن أجل هذا أوثر الفعل الماضي في قوله: (وكانوا) فهو حكاية عنهم يوم القيامة، وأمّا مجيء الفعل المضارع (يقولون) عقب الفعل الماضي في قوله تعالى: (وكانوا يقولون) فلبيان أنهم كانوا يردّدون هذا القول مرات ومرات. لما في الفعل المضارع من الدلالة على تجدد الحدوث.

٣–في قوله تعالى:(وتأتون في ناديكم المنكر) لمستان بلاغيتان: الأولى: إيثار الفعل المضارع (وتأتون) وذلك لبيان أن إتيان المنكر عادتهم ودأبهم الين لا يتخلفون عنه،وأوثر المضارع أيضاً لاستحضار تلك الصورة الدنيئة ماثلة أمام القارئ والمستمع، وكأنهم يمارسونها ساعة خوطبوا بهذا الخطاب. وفي هذا من التشنيع عليهم والاحتقار لهم ما فيه.الثانية :إيقاع الفعل المضارع (تأتون) على المنكر؛ للإشعار بأن الفعل الذي يأتونه، والعمل الذي يمارسونه قبيح قبحا ينكره العفيفون وذوو الأخلاق والفطر السويّة. كما أن التعبير بالفعل تأتون فيه معنى الخفة والسهولة وهذا يدل على استمرائهم للمعصية وتقبلهم لها فما عادوا يرونها من المنكرات بل هي عندهم من المباحات(المطعني،التفسير البلاغي للاستفهام،ج٣،ص٢٢٩)

٤–استخدام كلمة (الحافرة) في قوله تعالى: {أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} النازعات١٠

تدور مادّة حفر كما ذكر ابن فارس على أصلين هما: حَفْر الشّيء، وهو قلعه سُفْلا؛ والآخَر أوّل الأمر. فالأوّل حفَرتُ الأرض حَفْرا. وحافِر الفَرسِ من ذلك، كأنّه يحفر به الأرض.. والحَفَر: التُراب المستخرَج من الحُفْرَة، كالهَدَم.والأصل الثاني الحافرة، في قوله تعالى: {أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ في الحَافِرَةِ} [النازعات ١٠]، يقال: إنه الأمر الأوَّل، أي أنحْيا بعدما نموت. ويقال الحافرةُ من قولهم: رجع فلانٌ على حافرته، إذا رجع على الطريق الذي أَخَذَ فيه، ورجع الشَّيْخُ على حافرته إذا هَرِم وخَرِف. وقولهم: "النَّقْد عند الحافِرِ" أي لا يزُول حافرُ الفرس حتَّى تَنْقُدني ثمنَه. وكانت لكرامتها عندَهم لا تُباع نَسَاءً. ثم كثُر ذلك حتَّى قيل في غير الخيل أيضاً.(ابن فارس، معجم مقاييس اللغة ٢/ ٨٤،حفر)،ويلحظ من النص السابق أن ابن فارس قد فسّر (الحافرة) في آية النازعات بالأمر الأول وهو حفرة القبر، وهو ما ذكره الزمخشري أيضا (الزمخشري، الكشاف،٦٩٣/٤)

وقد وردت هذه المادة في القرآن مرتين: آل عمران ١٠٣: {وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ} .والنازعات: {أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} .وهي في الموضعين بمعنى حفرة القبر، أو الحالة الأولى، وبها فسرت آية النازعات. وهو رأي جمهور المفسرين.(الطبري، جامع البيان،٧٠/٢٤ وابن كثير،تفسير القرآن العظيم،٣١٣/٨،الماوردي، النكت والعيون،١٩٥/٦). وذكر أبو حيّان عن زيد بن أسلم أن الحافرة هي النار. (أبو حيان،٣٩٧/١٠) قالت بنت الشاطيء: وهو ما لا يستطاع حمل اللفظ عليه، فيما نرى، إلا على بعد وتكلف.والأولى أن يستبقى اللفظ دلالته اللغوية على حفرة القبر وعلى الحالة الأولى. فيكون السؤال حين ترجف الراجفة: أننا لمردودون في حفرة القبر أحياء، عائدون إلى حالتنا الأولى؟ (بنت الشاطيء، عائشة، التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ١٣٤)

والحافرة هنا فاعلة بمعنى مفعولة ، أو هي من باب النسبة. أي:ذات حفر،(أبو حيان، البحر المحيط ١٠/ ٣٩٧)، وإيثار هذه الصيغة في كلام المنكرين استغرابا ودهشة واستبعاداً منهم لحصول البعث؛فقد أرادوا الإيحاء بأن القبور هي التي تحفر على أصحابها ليخرجوا مع أنها في الأصل محفورة لا حافرة، فكأنهم أرادوا القول: كيف يحصل ذلك؟! فنسبوا الفعل للقبور استغرابا ودهشة واستبعاداً.

المطلب الثاني: الخصائص البلاغية للتراكيب

أولاً: الآيات بين الخبر والإنشاء

يقسّم البلاغيون الجملة العربية إلى قسمين:جملة خبرية: وهي كلُّ كلامٍ احتمل الصدق والكذب لذاته، وإلى جملة إنشائية: وهي كلُّ جملة لا تحتمل صدقا ولا كذبا لذاتها (ينظر:القزويني:الإيضاح، ص١٧-١٩ والهاشمي،أحمد، جواهر البلاغة،ص٦٣،ص٨٤)، والأصل أن تكون الجملة خبرية، أو أن تكون إنشائية، وقد يدخل على الجملة عامل يجعلها مرّة خبراً، ومرّة إنشاءً ومن هذه العوامل اختلاف القراءات المتواترة وتعددها.

أ-في الآية الكريمة قراءات جعلتها دائرة بين الخبر والإنشاء.أو هي إنشاء فقط. فهناك من أخبر في الأول واستفهم في الثاني. والمعنى على هذه القراءة أن استفهام المشركين وقع على إحيائهم بعد الممات،وهم لم يستفهموا في كونهم ترابا، لأنهم كانوا يعلمون حقيقة هذا المصير؛فهم لا ينكرونه، وإنما كان إنكارهم للبعث والنشور(ابن زنجله، حجة القراءات،ص٣٧٠-٣٧١)_وهناك من استفهم في الأول وأخبر في الثاني: وحجتهم أن الاستفهام إذا دخل في أول الكلام أحاط بآخره.وعليه يكون أحد الاستفهامين علة في الآخر والمعنى أن موتهم وكونهم ترابا علة لإحيائهم، ورجوعهم خلقا جديدا.فلما كان كذلك جعل الاستفهام لما هو سبب للإحياء وهو الموت والتراب (المرجع السابق،ص٣٧١)

أما من استفهم في الموضعين فحجته أن موضع الاستفهام هو في الكلمة الثانية ؛لأن المعنى: أإننا لفي خلق جديد إذا كنا تراباً؟! فهم لم يستفهموا عن كونهم ترابا، وإنما عن إحيائهم بعد الموت؛ ولذا أعيد الاستفهام في موضعه الذي هو فائدة السامعين في استفهامهم. والعرب إذا بدؤوا بحرف قبل الموضع الذي أرادوا إيقاعه فيه أعادوه في موضعه.وقيل: إن الاستفهام الأول ردٌّ على كلام محذوف، كأنهم قالوا لهم: إنكم مبعوثون بعد الموت، فردوا الاستفهام، وقالوا:أإذا كنا تراباً (المرجع السابق، ص٣٧٢)

ب-الخطاب في قوله تعالى: (وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) إمّا أن يكون موجّها للنبيّ-صلى الله عليه وسلم-، وإما أن يكون لكل من يصلح له الخطاب. قال القرطبي: قوله- تعالى-: "(وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ) أَيْ إِنْ تَعْجَبْ يَا مُحَمَّدُ مِنْ تَكْذِيبِهِمْ لَكَ بعد ما كُنْتَ عِنْدَهُمُ الصَّادِقَ الْأَمِينَ فَأَعْجَبُ مِنْهُ تَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ"(القرطبي، الجامع لأحكام القرآن،ج٩،ص٢٨٤). وجوز بعضهم أن يكون الخطاب لكل من يصلح له، أى: وإن تعجب أيها العاقل لشيء بعد أن شاهدت من مظاهر قدرة الله في هذا الكون ما شاهدت فازدد تعجبا ممن ينكر بعد كل هذا قدرته- سبحانه- على إحياء الموتى.(طنطاوي، سيد، التفسير الوسيط، ج٧،ص٤٤٥-٤٤٧، وينظر:(أبو السعود، إرشاد العقل السليم، ٦/٥،وابن عاشور، التحرير والتنوير،٨٩/١٣) وذكر ابن عاشور أنّ فائدة هذا الافتتاح التَّشْوِيقُ لِمَعْرِفَةِ الْمُتَعَجَّبِ مِنْهُ تَهْوِيلًا لَهُ أَوْ نَحْوَهُ .(ابن عاشور،التحرير والتنوير ١٣/ ٩٠) وذكر ابن عطيّة أنها للتوبيخ (ينظر:ابن عطية، المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٥)

ثانياً: معاني الاستفهام والأمر

في قوله تعالى: (أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ) الرعد استفهامان في قوله(أإذا كنا) وقوله تعالى:(أإنا)، والاستفهامان هنا قد خرجا عن معناهما الحقيقي إلى معنى الإنكار والاستبعاد. فقد بيّن ابن عاشور أن: والاستفهام في (أإذا) إنكاري عن مجموع أمرين هما: كونهم ترابا، وتجديد خلقهم.(الشوكاني، فتح القدير، ج٣،ص٨١)

الاستفهام الوارد في الايات هو استفهام إنكار واستبعاد في أقوى صورها اللفظية مبالغة في شدة الإنكار. إنهم ينكرون البعث بعد الموت وصيرورة الأجساد عظاما ورفاتا؛ لما بين الحالة التي وصفوها وبين الحياة من تنافٍ (المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام،٢٠٩/٢)

وأما الِاسْتِفْهَامُ فِي (أَإِذا ضَلَلْنا) لِلتَّعَجُّبِ وَالْإِحَالَةِ، أَيْ أَظْهَرُوا فِي كَلَامِهِمُ اسْتِبْعَادَ الْبَعْثِ بَعْدَ فَنَاءِ الْأَجْسَادِ وَاخْتِلَاطِهَا بِالتُّرَابِ، مُغَالَطَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَرْوِيجًا لِكُفْرِهِمْ. (ابن عاشور،التحرير والتنوير، ٢١/ ٢١٨)

ذهبت بنت الشاطيء في تفسير الاستفهام الوارد في قوله تعالى:({أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً) النازعات. مذهبا مغايرا لما عليه جمهور المفسرين؛ فذكرت أنّ المفسّرين بينوا أن الاستفهام الوارد في الآية يحتمل أن يكون على وجه التمني؛إذ يقولون في موقف الهول: ليتنا نرد في الحافرة ونكون عظاماً نخرة، ولكن يبعد هذا الإحتمال قولهم بعد ذلك: تلك إذن كرة خاسرة. إذ لو كان الاستفهام على وجه التمني، لكانت الكرة في حسابهم رابحة، كالذي في آيتي:الشعراء ١٠٢: {فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} والزمر ٥٨: {أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} .ويحتمل أن يكون على وجه الاستبعاد والاستهزاء؛ فالاستهزاء قريب والاستبعاد متبادر في سؤال الكفار للرسل، بآيات:الإسراء ٤٩: {وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ} .الإسراء ٩٨: {ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا} .المؤمنون ٨٢: {قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} .الواقعة ٤٧: {وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنْثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ} ؟ والآيات كلها مكية والسياق فيها متشابه: فهي من جدال الممارين في البعث، والسؤال بها {أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا} ؟ مما قالوه في الدنيا لرسل الله إليهم، على وجه الاستبعاد والتكذيب والإنكار.(بنت الشاطيء، التفسير البياني للقرآن الكريم ١/ ١٣٦-١٣٧)

وبعد أن بيّنت الاحتمالين السابقين ذكرت أن الاستفهام الوارد في سورة النازعات مغاير في معناه للاستفهامات المشابهة قالت:" وليس الأمر كذلك مع آية النازعات حيث السؤال يوم ترجف الراجفة، لا في الحياة الدنيا. وهو يأتي مع الفعل المضارع {يَقُولُونَ} التي انفردت بها آية النازعات، دون الآيات السابقة التي صدر السؤال فيها بالفعل ماضياً {قَالُوا} والمضارعة تعني الإحضار، وبهذا الإحضار يتجه مقول القول إلى موقف القيامة، {يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (٦) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ} ..... {يقولون أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ} ؟ {أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً} ؟ومقتضى هذا عندنا، أن يحمل الاستفهام هنا، لا على وجه التمني الذي تصرف عنه الآية التالية، ولا وجه الاستهزاء الذي لا يمكن تصوره في مثل ذلك الموقف، ولا على وجه الإنكار الذي لا محل له مع الإحضار وتحقق البعث،وإنما على وجه الدهشة والإستغراب والخوف، وحيرة المأخوذ برجفة القيامة بغتة! (بنت الشاطيء، التفسير البياني للقرآن الكريم (١/١٣٨-١٣٧)

وما ذهبت إليه بنت الشاطيء جدير بالعناية والتدبر؛لأنه مبنيٌّ على دراسة سياقية للآيات الكريمة،ولا يعني هذا تخطئة المفسرين السابقين فيما ذهبوا إليه فإن السياق يحتمل ما ذهبوا إليه من الإنكار والاستبعاد قياساً على الآيات المشابهة لهذه الأية موضوعا. ولكن ما ذهبت إليه بنت الشاطيء أقرب إلى روح السياق وخصوصية النظم.

وقد أوضحت بنت الشاطيء هذه الخصوصية من خلال التفريق بين افتتاح جملة الاستفهام بالفعل المضارع(يقولون)، وبين افتتاح الجملة التي بعدها بالفعل الماضي في قوله تعالى: (قالوا تلك إذاً كرةٌ خاسرة) فقالت:" وقد ذهب بعض المفسرين إلى تعيين الخاسرين هنا بأنهم صناديد قريش الذين كذبوا بالآخرة، و {قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} على وجه الاستهزاء. وقد مضى القول في استبعاد الاستهزاء في موقف القيامة ورجفة البعث. ويمنعه أيضاً أن الاستفهام في الآيتين السايقتين جاء مع فعل المضارعة {يَقُولُونَ} الذي يعني الإحضار. أما الكرة الخاسرة فجاءت مع الفعل ماضياً {قَالُوا}، وأتدبر هذا الانتقال من المضارعة إلى المضي، فأراه يهدي إلى بيان وجه المقول، وتحديد الجو الذي قيلت فيه كل منهما، والدلالة على الحالة النفسية للقائلين في كل من الموقفين: بغتتهم رجفة القيامة، بما تبعها من هزة ووجيف وخشوع، فهم يقولون في دهشة المأخوذ مَنْ فوجئ بما لم يكن في حسابه قط: لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ؟ أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً؟ ولم يكن الموقف بحيث يحتاج إلى إجابتهم عما سألوا عنه، وقد قضى الأمر، وصار كل هذا الذي كذبوا به واستبعدوه واقعاً مشهوداً. فلما عاينوا اليقين {قَالُوا تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ} في حسرة وندم ويأس.وفي كلمة {قَالُوا} من سر البيان، أنها تأتي حيث يبدو في ظاهر الأمر إمكان الإستغناء عنها بـ: يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ (١٠) أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا نَخِرَةً؟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ. ومجيئها هو الذي يوجه إلى انتقالهم من حال إلى حال.فهم في أخذة الرجفة يَقُولُونَ أَإِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ؟ والمضارعة هنا هي التي تلائم حيرة المأخوذ وعجب المستغرب. كما أن المضى في {قَالُوا} بعد أن أتاهم اليقين، هو الملائم لحالة اليأس من استرجاع ما فات أو استدراك ما مضى والتيقن من الخسران المحقق والمصير المحتوم.....هذا مما يوجه إليه {يَقُولُونَ} في صدر الآيتين الأوليين، عند رجفة القيامة ثم المغايرة بـ {قَالُوا} حين تحقق الخسران، وقضى الأمر فلا سبيل إلى استرجاع ما فات"(بنت الشاطيء، التفسير البياني للقرآن الكريم ١٣٩/١)

الأمر: يعدُّ الأمر من أبرز الآساليب الإنشائية التي تتعدد معانيها،وتختلف أنظار العلماء في تجليتها كلٌّ حسب ما أوتي من فهم وقدرة على تحليل سياق الآيات. (أبو موسى، محمد، دلالات التراكيب،ص٢٦٣) وقد جاء أسلوب الأمر في الآيات التي معنا في موضع واحد وهو قوله تعالى: {وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ) العنكبوت ٢٨-٢٩. يراد به التعجيز.قال ابن عاشور: الأمر في {ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ} للتعجيز. وهو يقتضي أنه أنذرهم العذاب في أثناء دعوته. ولم يتقدم ذكر ذلك في قصة لوط فيما مضى لكن الإنذار من شؤون دعوة الرسل. (ابن عاشور،التحرير والتنوير،١٦٣/٢٠)

ثالثا: أسلوب التوكيد: وهو أن يَرِدَ اللفظ لتقرير المعنى الحاصل قبله وتقويته.(ينظر: الكفوي، الكليات،ص٤٠٧)، ويأتي التوكيد لفوائد منها: نفي احتمال المجاز،وللاهتمام بالأمر، وإقناع المخاطب المنكر،(ينظر:السبت، عثمان،قواعد التفسير،٤٩٩/١-٥٠٤) وعليه فقد جاء الاستفهام الثاني في الآيات الكريمة توكيدا للاستفهام الأول(ينظر:ابن عطية،المحرر الوجيز،٣/ ٢٩٥)؛وذلك لأن الله بيّن على لسان رسله ضرورة حصول البعث،وأنه لا محالة كائن، فاستفهموا عنه استفهام إنكار مصورين له بصورته التي خاطبهم الرسل بها (المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام،١٥٠/٢)

وجاء الاستفهام الثاني مؤكّدا للاستفهام الأول.إذ كان الأصل أن يقال: أإذا كنا عظاما ورفاتا نبعث أحياءً من جديد؟ إلا أنهم لم يكتفوا بالاستفهام الأول فأكّدوه مرّة أخرى.

إن الاستفهام الواقع في الآيات هو لإنكار وقوع البعث، وأنّ الاستفهام الثاني توكيد للاستفهام الأول،والحامل لهم على التوكيد طول الفصل بين الأول وبين قوله: لمبعوثون.....)، وإرادة حكاية إخبار الرسول لهم بالبعث،لأن الرسل قد أكّدوا وقوع البعث منا مرّ آنفاً.(أبو السعود، إرشاد العقل السليم ٦/ ١٣٤)

إن لتأكيد الاستفهام الثاني (بإنّ) سرا بلاغيا لطيفا يكشف عنه الدكتور عبد العظيم المطعني فيقول: " وقد لحظنا في الاستفهام الثاني لطيفة بلاغية لم يتنبه إليها أحدٌ ممن نستتبع آراءهم في هذه الدراسة،وهي لماذا أصرَّ منكرو البعث على ذكر (إن) في الاستفهام الثاني؟ ودخول (إن) هذه تنافي مقصودهم الذي هو الإنكار، فكان الأولى بهم، وهم أرب البيان، أن لا يذكروها. فما السرّ في ذكرها إذاً؟"

والجواب: أن الدعاةَ وفي مقدمتهم النبي–عليه الصلاة والسلام–حين أخبروا بالبعث بعد الموت أخبروا به مؤكّدا ولم يخبروا به مرسلا كقوله تعالى: (زعم الذين كفروا أن لن يبعثا قل بلى وربي لتبعثن) التغابن–١٧، فلما كان التبليغ بالبعث مؤكّدا أنكره المشركون مؤكّدا؛فأدخلوا إن على المبتدأ لتوكيد جملة الخبر، ولو كانوا أنكروه غفلا من التوكيد لكان ذلك قصورا منهم في حقّ أنفسهم حسب زعمهم.(المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام،٢/٢٠٩ وأبو السعود،إرشاد العقل السليم،٥/ ١٧٧)

جاءت الآيات تحمل من المؤكّدات على لسان المنكرين قصدا إلى إنكار قضية البعث. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أنّ هذه المؤكّدات هي للمبالغة والتشديد في الإنكار. قال الآلوسي: وتكرير الهمزة في (أإنا للمبالغة والتشديد في الإنكار. وتحلية الجملة بـ(إن) واللام لتأكيد الإنكار لا لإنكار التوكيد.(ينظر:ابن عادل الحنبلي،اللباب في علوم الكتاب، ص ٤٧٩٥، وأبو السعود،إرشاد العقل السليم،٥/ ١٧٧)

وذهب الدكتور عبد العظيم المطعني في فهم الآية مذهباً آخر وهو: أن التوكيد المحكي في قوله تعالى: (أإنا) لمخرجون) ومثيلاتها إنما هو حكاية للتوكيد الوارد في الأيات التي قررت البعث بعد الموت. وعليه يكون مراد منكري البعث هو إنكار حتمية إحياء الناس من قبورهم.

ويفهم من كلام المطعني أنه يجعل الأمر من باب إنكار التأكيد لا تأكيد الإنكار. والمعنى على هذا: أوقت صيرورتنا ترابا يؤكّد محمد إخراجنا من قبورنا. وادّعى المطعني أن ما ذهب إليه أحرى وأليق بالمقام، قال: " والذي لاح لنا وأثبتناه هنا–في آية النمل– وفي سورة المؤمنون من قبل نراه أحرى وأليق بالمقام،وهو: أنهم أرادوا تأكيد ما أنكروه كما بلغهم مؤكّداً لا أنهم أنشأوا هم هذا التأكيد من عند أنفسهم؛ لأن المقام لا يساعد عليه.(المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام،٢/٢٠٩)

وعند التأمّل في القولين فإننا نميل إلى الأخذ برأي الدكتور المطعني في توجيه التوكيد؛ وذلك لأننا لو ذهبنا إلى القول الأول، وأن المنكرين هم الذين أنشأوا هذا التوكيد لتعارض هذا مع المقام؛ لأن المتكلم لا يؤكّد كلامه إلا في مقام إنكار المخاطب له،ومن المعلوم أن المخاطب في هذه الآيات هو النبي–صلى الله عليه وسلم– والدعاة من بعده، وكلّ هؤلاء غير منكرين للبعث؛ مما جعل أصحاب هذا الرأي يحملون التوكيد على المبالغة فرارا مما يترتب على هذا القول،

والمبالغة نوع من المجاز، والمصير إليها مع إمكان القول بالحقيقة الظاهرة مخالف لقواعد التفسير المقررة عند العلماء حيث قالوا. إن الحمل على الحقيقة أولى من الحمل على المجاز ما لم توجد قرينة صارفة عن ذلك (السبت، عثمان، قواعد التفسير،٢/٤١١)وكذلك جاء الخبر في آية العنكبوت الأولى مؤكّدا بأكثر من مؤكّد؛ وذلك لتشديد الإنكار وتقويته، ولأن إتيانهم الرجال واقع محقق فنبّه عليه بكلام يطابق الواقع.

رابعاً: التقديم والتأخير

في قوله تعالى: (وأولئك الأغلال في أعناقهم) قدّم الأغلال على الجار والمجرور ليخيل للسامع أن (أولئك) من كثرة إحاطة الأغلال بهم كأنهم مجموعة أغلال يلتف بعضها على بعض.(المطعني،التفسير البلاغي للاستفهام،ج٢،ص١٥١)

إنّ تقديم العظام على الرفات للسبق الزمني؛ إذ إن صيرورة الموتى عظاماً أسبق من صيرورتهم رفاتاً.

تقدّيم التراب على العظام؛ لأنه أدخل في تكذيب الوعد بالحياة مرة أخرى، لبعده عن الصلة بالحياة الدنيا التي كانوا عليها، وأما العظام وإن نخرت فإن فيها آثاراً مما كانت عليه قبل الموت.(أبو السعود، إرشاد العقل السليم ٦/ ١٣٤، والألوسي، روح المعاني،١٢/ ٧٦)

جاء في آية النمل تقديم وتأخير، إذ قدّم المنكرون أنفسهم في الفناء على آبائهم في قوله تعالى: (وقال الذين كفروا أئذا كنا ترابا وءاباؤنا) وعلة هذا التقديم أن المنكرين أرادوا الترقي في الاستدلال على إنكار البعث واستبعاده من خلال بيان أنهم لن يبعثوا وقد صاروا ترابا بل كيف يُبْعَث آباؤهم الذين صاروا ترابا منذ زمن بعيد؛ فكأنهم يقولون: إنّ أمر البعث محال.وعلى هذا الفهم يكون في الآية إيجاز بالحذف تقديره:أنخرج وقت صرنا ترابا وآباؤنا كانوا كذلك.
وإذا نظرنا في سورة الصّافات وجدنا أنهم أخّروا ذكر الآباء عن أنفسهم للعلة التي ذكرناها قال تعالى: (أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١٦) أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ (١٧) ففي قوله: (أَوَآباؤُنَا الْأَوَّلُونَ) استفهام معطوف على الاستفهام في قوله: (: (أَإِذا مِتْنا)، ومعنى الاستفهام فيهما الإنكار والاستبعاد.قال ابن عاشور:" وَوَجْهُ الْعَطْفِ بِـ أَوْ هُوَ جَعْلُهُمُ الْآبَاءَ الْأَوَّلِينَ قِسْمًا آخَرَ فَكَانَ عَطْفُهُ ارْتِقَاءً فِي إِظْهَارِ اسْتِحَالَةِ إِعَادَةِ هَذَا الْقِسْمِ لِأَنَّ آبَاءَهُمْ طَالَتْ عُصُورُ فَنَائِهِمْ فَكَانَتْ إِعَادَةُ حَيَاتِهِمْ أَوْغَلَ فِي الِاسْتِحَالَةِ. وَقَرَأَ الْبَاقُونَ بِفَتْحِ الْوَاوِ عَلَى أَنَّ الْوَاوَ وَاوُ الْعَطْفِ وَالْهَمْزَةَ هَمْزَةُ اسْتِفْهَامٍ فَهُمَا حَرْفَانِ. وَقُدِّمَتْ هَمْزَةُ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى حَرْفِ الْعَطْفِ حَسَبِ الِاسْتِعْمَالِ الْكثير. وَالتَّقْدِير: وأ آبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ مِثْلُنَا" (ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٣،ص٩٩)
وَتَقْدِيمُ الظَّرْفِ من قَوْله: أَإِذا كُنَّا عِظاماً لِلِاهْتِمَامِ بِهِ لِأَنَّ مَضْمُونَهُ هُوَ دَلِيلُ الِاسْتِحَالَةِ فِي ظَنِّهِمْ، فَالْإِنْكَارُ مُتَسَلِّطٌ عَلَى جُمْلَةِ أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ. وَقُوَّةُ إِنْكَارِ ذَلِكَ مُقَيَّدٌ بِحَالَةِ الْكَوْنِ عِظَامًا وَرُفَاتًا، وَأَصْلُ تَرْكِيبِ الْجُمْلَةِ: أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا.(أبو السعود، إرشاد العقل السليم ،٥/ ١٧٧)
رابعا: الحذف والذكر:
يعدُّ هذا الأسلوب من أبرز الأساليب البلاغية ،وأكثرها فائدة، وأدقّها مبحثاً فهو"بابٌ دقيقُ المَسْلك، لطيفُ المأخذ، عجيبُ الأَمر، شبيهٌ بالسِّحْر، فإنكَ ترى به تَرْكَ الذِكْر، أَفْصَحَ من الذكْرِ، والصمتَ عن الإفادةِ، أَزْيَدَ للإفادة، وتَجدُكَ أَنْطَقَ ما تكونُ إذا لم تَنْطِقْ، وأَتمَّ ما تكونُ بياناً إذا لم تَبِن" (الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ١/ ١٤٦).وكما كان للحذف

فوائده، فكذلك للذكر فوائده، وإن كان هو الأصل.(ينظر: السبكي،بهاء الدين،عروس الأفراح،١٦١/١،وأبو موسى،خصائص التراكيب،ص٢١٦) وقد وقع أسلوب الحذف في عدد من المواضع في الآيات الكريمة نبينها فيما يأتي:

وقع في الاستفهام الوارد في قوله تعالى:(يقولون أئنا لمردودون في الحافرة (١٠) أئذا كنا عظاما نخرة) – سورة النازعات (١١–١٠) حذفان:حذف جواب (إذا) ، وتقديره : نبعث، أو نرد للحياة مرة أخرى، وحذف الفاعل في قوله: (لمردودون) فهو اسم مفعول من فعل لم يسمَّ فاعله. ودلالة الحذف في الموضعين الكشف عن خبايا قلوب المنكرين. فحذف الجواب ترجمة أمينة عن فراغ قلوبهم من الإيمان بالبعث. وحذف الفاعل وبناء الفعل لما لم يسم فاعله؛ لأنهم لا يرون لهذا الفعل فاعلا.(المطعني، عبد العظيم، التفسير البلاغي للاستفهام، ٣٤١/٤–٣٤٢)

وذكر الألوسي أن في قوله تعالى: (أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً) حذفاً لجواب (إذا) على اعتبار أنها شرطيّة دل عليه قوله تعالى : (أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ)أي: نبعث. (الألوسي، روح المعانى ١٢/ ٧٦) وما ذهب إليه الألوسي ذهب إليه كثير من المفسّرين.ومن قواعد التفسير المذكورة أن حذف جواب الشرط يدل على تعظيم الأمر وشدته في مقامات الوعيد (السبت،عثمان،قواعد التفسير، ٤١٢/١)

كما وقع في آية العنكبوت حذف بالنظر في مواضع ورود القصة في القرآن؛ إذ لم يرد في آية العنكبوت ذكر (شهوة من دون النساء) وذلك أن قوله هنا (إنكم لتأتون الفاحشة) يغني عن ذكر ذلك.وسنبين ذلك في الموضع المنعقد لبيان أسرار التشابه اللفظي بين الآيات.

ولمّا كان الذكر هو الأصل كما تقدّم خاصة فيما يتصل بالمسند والمسند إليه،فقد جاء الكلام عن الذكر في كل المواضع التي تحدّثنا فيها عن التعريف والتنكير والإظهار في موضع الإضمار وهكذا.ولكن نذكر هنا موضعاً لذكر قيد من القيود وهو الحال وذلك في قوله تعالى: (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا) الإسراء (٤٩). قال ابن عاشور: "وخَلْقاً جَدِيداً حَالٌ مِنْ ضَمِيرِ «مَبْعُوثُونَ» . وَذُكِرَ الْحَالُ لِتَصْوِيرِ اسْتِحَالَةِ الْبَعْثِ بَعْدَ الْفَنَاءِ لِأَنَّ الْبَعْثَ هُوَ الْإِحْيَاءُ، فَإِحْيَاءُ الْعِظَامِ وَالرُّفَاتِ مُحَالٌ عِنْدَهُمْ، وَكَوْنُهُمْ خَلْقًا جَدِيدًا أَدْخَلُ فِي الِاسْتِحَالَةِ" (ابن عاشور، التحرير والتنوير،٩٩/١٤)

خامسا: أسلوب القصر

القصر من الأساليب البلاغية التي يقتضيها المقام، وتستدعيها أحوال المخاطبين، وهو يعني: تخصيص أمرٍ بأمرٍ بطريقٍ مخصوص. وله أركانه وطرقه التي يستعمل كلٌّ واحد منها في مقامه المعلوم.(ينظر:الهاشمي،أحمد،جواهر البلاغة،ص١٩٦.أبو موسى،محمد،دلالات التراكيب،ص٦٢ وما بعدها. فضل حسن عباس،البلاغة فنونها وأفنانها،علم المعاني،ص٣٧٢) ومن المواضع التي جاء فيها أسلوب القصر:

قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}، قد جاءت فاصلة الآية مشتملة على أسلوب القصر في قوله تعالى: وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.لبيان أن خلودهم سيكون في النار لا في غيرها.قال أبو السعود: "وتوسيطُ ضمير الفصلِ ليس لتخصيص الخلودِ بمنكري البعثِ خاصة بل بالجميع المدلولِ عليه بقوله تعالى (أُوْلَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبّهِمْ)".(تفسير أبي السعود ،إرشاد العقل السليم ٥/ ٦،الشوكاني، فتح القدير،٨١/٣، الهرري،محمد الأمين، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ١٤/ ١٧٨)

وفي قوله تعالى: :(فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) بنى قوم لوط جوابهم لنبيهم –عليه السلام– على أسلوب الحصر، فقد حُصِر جوابهم في هذه الآية بهذا القول الذي قالوه وهو استعجالهم بالعذاب مع التهييج والحث عليه. فالمقصور هو جواب قومه والمقصور عليه هو استعجالهم العذاب من باب قصر الموصوف على الصفة.وإذا نظرنا في جوابهم الوارد في سورة الأعراف وجدناه محصوراً في إخراجهم من القرية قال تعالى: (وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ) الأعراف (٨٢)

ولا منافاة بين الحصرين؛ لأنه لا مانع أن يكون قوم لوط قد ذكروا هذين الجوابين، وقالوا بهذين القولين فذكر القرآن في كل سورة قولاً منهما. وأمّا عن اختصاص سورة العنكبوت بما ذكر فيها من استعجال العذاب؛فذلك لمناسبته لجوّ السورة فقد افتتحت السورة بالحديث عن الفتنة والابتلاء لإظهار الصادق من الكاذب. كما ورد في السورة حديث كثير عن عذاب الله لأمم من قبل قوم لوط ومن بعدهم فقد جاء قبلها قوله تعالى: يُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ) العنكبوت (٢١)وقوله تعالى: (وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ اللَّهِ وَلِقائِهِ أُولئِكَ يَئِسُوا مِنْ رَحْمَتِي وَأُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ) (٢٣) وذكر بعدها إهلاكه لأقوام عتت وطغت وكفرت بأنعم الله بل ذكر في السورة من ألوان العذاب مالم يذكر في غيرها كقوله تعالى: وَقارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهامانَ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مُوسى بِالْبَيِّناتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَما كانُوا سابِقِينَ (٣٩) فَكُلًّا أَخَذْنا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِ حاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنا وَمَا كانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٤٠).

أما اختصاص سورة الأعراف بما اختصت به فهو كذلك متناسب مع سياق السورة، فقد جاء في السورة ذكر لأقوام بدلوا نعمة الله كفرا،وقابلوا منح الله وعطاياه بالمعاصي.وعاملوا رسلهم الناصحين لهم بالاستهزاء والسخرية من إرشاداتهم ففعلوا عكس ما يطلبون، فقوم لوط من جملة هؤلاء الأقوام الذين تمردوا على نبيهم فقابلوه بالتكذيب والتهكم والاستهزاء وفعل عكس ما يطلب قال ابن عاشور: " لَكِنَّ الْقَوْمَ لَمَّا تَمَرَّدُوا على الفسوق كَانَ يَعُدُّونَ الْكَمَالَ مُنَافِرًا لِطِبَاعِهِمْ، فَلَا يُطِيقُونَ مُعَاشَرَةَ أَهْلِ الْكَمَالِ، وَيَذُمُّونَ مَا لَهُمْ مِنَ الْكَمَالَاتِ فَيُسَمُّونَهَا ثِقْلًا، وَلِذَا وَصَفُوا تَنَزُّهَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآلِهِ تَطَهُّرًا، بِصِيغَةِ التَّكَلُّفِ وَالتَّصَنُّعِ، وَيَجُوزَ أَنْ يَكُونَ حِكَايَةً لِمَا فِي كَلَامِهِمْ مِنَ التَّهَكُّمِ بِلُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَآلِهِ، وَهَذَا مِنْ قَلْبِ الْحَقَائِقِ لِأَجْلِ مُشَايَعَةِ الْعَوَائِدِ الذَّمِيمَةِ، وَأَهْلُ الْمُجُونِ وَالِانْخِلَاعِ، يُسَمُّونَ الْمُتَعَفِّفَ عَنْ سِيرَتِهِمْ بِالتَّائِبِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، فَقَوْلُهُمْ: إِنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ قَصَدُوا بِهِ ذَمَّهُمْ.وَهُمْ قَدْ عَلِمُوا هَذَا التَّطَهُّرَ مِنْ خُلُقِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَأَهْلِهِ لِأَنَّهُمْ عَاشَرُوهُمْ، وَرَأَوْا سِيرَتَهُمْ، وَلِذَلِكَ جِيءَ بِالْخَبَرِ جُمْلَةً فِعْلِيَّةً مُضَارِعِيَّةً لِدَلَالَتِهَا عَلَى أَنَّ التَّطَهُّرَ مُتَكَرِّرٌ مِنْهُمْ، وَمُتَجَدِّدٌ، وَذَلِكَ أَدْعَى لِمُنَافَرَتِهِمْ طِبَاعَهُمْ"(ابن عاشور، التحرير والتنوير ٨ / ٢٣٥)

سادسا:الفصل والوصل

قال المراغي:"الفصل والوصل هو العلم بمواضع العطف أو الاستئناف، والتهدي إلى كيفية إيقاع حروف العطف في مواقعها، أو تركها عند الحاجة إليها، وذلك صعب المسلك، لطيف المغزى، كثير الفائدة، غامض السر، لا يوفق للصواب فيه إلا من أوتي حظا من حسن الذوق وطبع على البلاغة، ورزق بصيرة نقادة في إدراك محاسنها, ولصعوبة ذلك جعل حدا للبلاغة, ألا ترى إلى بعض البلغاء وقد سئل عن البلاغة فقال: "هي معرفة الفصل والوصل"، فجعل ما سواه تبعا ومفتقرا إليه, وليس بالخفي أنه لم يرد بذلك إلا التنبيه على غموضه وجليل خطره وأن أحدًا لا يكمل في معرفته إلا كمل في سائر فنونها، فإن سبك الكلام وقوة أسره وشدة تلاحم أجزائه تحتاج إلى صانع صنع وحاذق ماهر يبين بين أقسام الجمل التي تفصل والتي توصل" (المراغي: علوم البلاغة ص: ١٦٢)

ومن المواضع التي جاء فيها أسلوب الفصل والوصل:

١-إن من ينظر في قوله تعالى: (وإن تعجب.....)يجد أن قوله تعالى: (أولئك الذين كفروا) قد فصلت عما قبلها، وأن قوله تعالى: (وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النارهم فيها خالدون) قد وصلت بالتي قبلها .والسر في فصل الموضع الأوّل أن الجملة الثانية واقعة موقع الاستئناف البياني من الجملة الأولى، وذلك أن قولهم الذي حكاه الله عنهم يشوّق النفس لمعرفة ماذا سيقول الله فيهم وقد أعلنوا الكفر البواح؟ فيأتي الجواب:أولئك الذين كفروا بربهم. وهذا ما يسميه البلاغيون شبه كمال الاتصال(المطعني،التفسير البلاغي للاستفهام،ج٢،ص١٥١)

٢-وأمّا سرّ وصل قوله تعالى: (وأولئك الأغلال في أعناقهم)بالتي قبلها فلما بينها وبين التي قبلها من تغاير واشتراك، تغاير من حيث المعنى؛إذ الجملة الأولى تبين أن المنكرين للبعث ممن كفر بالله فهي تبين سبب الكفر، وتبين الثانية جزاء الكفر وإنكار البعث. وأمّا الاشتراك فحاصل باتفاق الجملتين في الخبر لفظا ومعنى. وهو ما يسمى عند علماء البلاغة التوسط بين الكمالين.(ابن عاشور، التحرير والتنوير ١/ ٩١)

٣-عطف قوله تعالى: (وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) على قوله: (وأولئك الأغلال) من باب عطف الخاص على العام من باب الترقي في بيان تهويل وتبشيع ما ينتظر أولئك المكذبين من عذاب شديد.(المطعني،التفسير البلاغي للاستفهام،ج٢،ص١٥١)

٤-عطف قوله تعالى: (وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا)الإسراء(٤٩) على ما قبله وهو قوله تعالى: (انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا)الاسراء-٤٨ ولم تفصل،لأن الآيتين من باب تسجيل مواقف المشركين من الدعوة،فكأنه قال: ضربوا وقالوا.قال أبو السعود: "يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ جُمْلَة وَقالُوا مَعْطُوفَةٌ عَلَى جُمْلَةِ قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقولُونَ [الْإِسْرَاء: ٤٢] بِاعْتِبَارِ مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ قَوْلِهِ: كَمَا تَقُولُونَ لِقَصْدِ اسْتِئْصَالِ ضَلَالَةٍ أُخْرَى مِنْ ضَلَالَاتِهِمْ بِالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ، بَعْدَ اسْتِئْصَالِ الَّتِي قَبْلَهَا بِالْحُجَّةِ الْقَاطِعَةِ بِقَوْلِهِ قُلْ لَوْ كانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ الْآيَةَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِمَنْزِلَةِ الِاعْتِرَاضِ.وَيَجُوزُ أَنْ تَكُونَ عَطْفًا عَلَى جُمْلَةِ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُوراً [الْإِسْرَاء: ٤٧] الَّتِي مَضْمُونُهَا مَظْرُوفٌ لِلنَّجْوَى، فَيَكُونُ هَذَا الْقَوْلُ مِمَّا تَنَاجَوْا بِهِ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَجْهَرُونَ بِإِعْلَانِهِ وَيَعُدُّونَهُ حُجَّتَهُمْ عَلَى التَّكْذِيبِ" (أبوالسعود ،إرشاد العقل السليم ٥/ ١٧٧، الألوسي ، روح المعاني ٨/ ٨٧)

٥-مجيء قوله تعالى : (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا) مؤكّدا بإنّ والجملة الاسميّة للدلالة على أنّ الكفر وقع منهم وقوعاً محقّقاً.وأنهم مصرون عليه مع قيام الأدلة الواضحة والبراهين الساطعة على بطلان كفرهم، وإثبات حقائق الإيمان.وهو اسْتِئْنَافٌ بَيَانِيٌّ لِأَنَّ الْعِقَابَ الْفَظِيعَ الْمَحْكِيَّ يُثِيرُ فِي نُفُوسِ السَّامِعِينَ السُّؤَالَ عَنْ سَبَبِ تَرَكُّبِ هَذِهِ الْهَيْئَةِ مِنْ تِلْكَ الصُّورَةِ الْمُفْظِعَةِ، فَالْجَوَابُ بِأَنَّ ذَلِكَ بِسَبَبِ الْكُفْرِ بِالْآيَاتِ(ابن عاشور،التحرير والتنوير (١٥/ ١٢٤)

٦-جاء قوله تعالى: (وقالوا أإذا كنا عظاما ورفاتاً) معطوفاً بالواو من باب عطف الخاص على العام؛ لأن قولهم هذا من جملة كفرهم، وإنّما خصّه بالذكر لبيان شناعة هذا القول وحماقة أصحابه.

٧-وجاء قوله تعالى: (وقالوا أئذا ضللنا في الأرض) متصلاً بما قبله؛ وذلك أنّ الواو هنا هي واو الحال قال ابن عاشور: "الْوَاوُ لِلْحَالِ، وَالْحَالُ لِلتَّعْجِيبِ مِنْهُمْ كَيْفَ أَحَالُوا إِعَادَةَ الْخَلْقِ، وَهُمْ يَعْلَمُونَ النَّشْأَةَ الْأُولَى، وَلَيْسَتِ الْإِعَادَةُ بِأَعْجَبَ مِنْ بَدْءِ الْخَلْقِ، وَخَاصَّةً بَدْءَ خَلْقِ آدَمَ عَنْ عَدَمٍ، وَخُلُوُّ الْجُمْلَةِ الْمَاضَوِيَّةِ عَنْ حَرْفِ (قَدْ) لَا يَقْدَحُ فِي كَوْنِهَا حَالًا

عَلَى التَّحْقِيق" ووقوع الواو في جملة الحال يظهر اتصالا بين جملة الحال وصاحبها. (ابن عاشور، التحرير والتنوير ٢١/ ٢١٨)

٨-فصلت آية المؤمنون: (قالوا أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) عن التي قبلها وهي قوله تعالى:(بَلْ قَالُواْ مِثْلَ مَا قَالَ الأولون) لأن بين الجملتين كمال اتصال،لأن قوله تعالى: (قالوا أئذا متنا) بدل أو عطف بيان من الأولى. ويمكن حمل العلاقة بينهما على شبه كمال الاتصال. فتكون الثانية جوابا عن سؤال نشأ عن الجملة الأولى، حاصله: ماذا قال الأولون؟ وعلى الوجهين يمتنع العطف.(يقولون أئنا لمردودون في الحافرة (١٠) أئذا كنا عظاما نخرة) – سورة النازعات (١٠-١١)

٩-يلحظ أنّ الآية النمل جاءت معطوفة على ما قبلها؛ وعلة ذلك أنّ بين الجملتين تغايراً في العموم والخصوص، فالآية التي ندرسها أعمُّ من التي قبلها. قال ابن عاشور: "أَعْقَبَ وَصْفَ عَمَايَةِ الزَّاعِمِينَ عِلْمَ الْغَيْبِ بِذِكْرِ شُبْهَتِهِمُ الَّتِي أَرَتْهُمُ الْبَعْثَ مُسْتَحِيلَ الْوُقُوعِ، وَلِذَلِكَ أَسْنَدَ الْقَوْلَ هُنَا إِلَى جَمِيعِ الَّذِينَ كَفَرُوا دُونَ خُصُوصِ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ عِلْمَ الْغَيْب، وَلذَلِك عطفت الْجُمْلَةَ لِأَنَّهَا غَايَرَتِ الَّتِي قَبْلَهَا بِأَنَّهَا أَعَمُّ" (ابن عاشور، التحرير والتنوير،ج٢٠،ص٢٤)

١٠-فصلت آية الاستفهام الأولى في الصافات عما قبلها لأنّ بين الجملتين كمال اتصال، وبيان ذلك: أن قوله تعالى : (أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً وَعِظاماً أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ) مبينة وموضّحة لدلالة اسم الإشارة في قوله تعالى قبلها: (وَقالُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ) فدلالة اسم الإشارة على البعث.أما موقع هذه الاستفهام الثاني من الاستفهام الأول فهو موقع التفصيل لما أجمل في قوله تعالى: (إنكم لتأتون الفاحشة) لأنه لو لم يذكر هذا التفصيل لاحتمل قوله الأول أن تكون الفاحشة التي يأتيها قومه هي الزنا. ولكن لما قال: (أئنكم لتأتون الرجال) اتضح المراد من الفاحشة في الجملة الأولى.

١١-وقد قرأ الجمهور الاستفهام الأول بالإخبار، وعليه تكون جملة (أئنكم لتأتون الرجال) بدلا أو عطف بيان، ويكون بين الجملتين كمال الاتصال؛لذا جاءت الجملة الثانية مفصولة عن الأولى.

سابعاً:الإيجاز

إن في لفظة (بآياتنا) الواردة في قوله تعالى: (ذلك بأنهم كفروا بآياتنا) قصداً في اللفظ، ووفاءً بحق المعنى؛ فهي جامعة لمعانٍ كثيرة فهي تدل على المعجزات والرسالات والبراهين الكونية والقولية.

قوله: (وتقطعون السبيل) فيها من الايجاز باللفظ والوفاء بحق المعنى ما يشهد لهذا القرآن بالتفوق والإعجاز، إذ تعد هذه العبارة من جوامع الكلم لكثرة المعاني التي يمكن أن تدل عليها. فهذه العبارة تحتمل أن يكون المقصود بها قطع الطريق بالاعتداء على المارّة، وإخافتهم وترويعهم ، وانتهاك حرماتهم. وعلى هذا تكون العبارة كناية عن العنف والترهيب والتخويف. أو مجاز مرسل علاقته السببية من إطلاق المسبّب وإرادة السبب. كما تحتمل أن يراد بها قطع النسل بهجر أسبابه المؤدية إليه وهو نكاح النساء. وعلى هذا تكون العبارة كناية عن انعدام التناسل. أو استعارة تصريحية تبعية حيث شبه انعدام التناسل المترتب على جرائمهم بقطع الأرحام وتعطيلها عن الإنجاب قطعاً حقيقيا، ويكتمل سر هذه الاستعارة في تبشيع جريمتهم وتصويرها بصورة الواقع المحسوس.(المطعني،التفسير البلاغي للاستفهام،ج٣،ص٢٢٨-٢٢٩)

كما يحتمل أن يكون المراد بقطع السبيل هو منع المارة من السير فيه سيراً حقيقيا خشية أن يعتدى عليهم ويُجبرون على فعل الفاحشة فيهم. وتكون هذه العبارة على هذا المعنى من باب المجاز العقلي في النسبة الإيقاعية.أي: تقطعون سير أهل الطريق في الطريق.كل هذه المعاني حاصلة من عطاء النص القرآني وثرائه

ثامنا:من أسرار المتشابه اللفظي في الآيات الكريمة

يلحظ في الآيات المذكورة تغاير في نظمها، ونجد هذا التغاير واقعا في السورة الواحدة كما هو الحال في سورتي الإسراء والصافات. وقد أرجع بعض العلماء هذا التغاير في النظم إلى تفنن منكري البعث في عباراتهم الدالة على إنكار البعث، فجاء القرآن فنقل لنا كلّ هذه الأقوال كما حكيت من باب جمع الشبهات بكل صورها للرد عليها.وهذا التعليل مقبول إلى حدّ كبير لكنه لا يجيب عن سر اختصاص كلّ سورة بما اختصت به، فهل إذا وضعنا آية مكان أخرى يستقيم المعنى؟ وسنقف مع الآيات المتشابهة في نظمها في محاولة لتجلية أسرار هذا التشابه، إظهاراً لأحد مظاهر الإعجاز في القرآن، وردّا على كلّ من تسوّل له نفسه الطّعن في القرآن.

أولا: المتشابه اللفظي في آيتي الإسراء

أ–وردت في سورة الإسراء آيتان متشابهتان هما: قوله تعالى: (وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) سورة الإسراء (٤٩) وقوله تعالى: (ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا) سورة الاسراء (٩٨)

وقد كشف العلماء عن سر إعادة الجملة الأولى مرّة أخرى في السورة نفسها نافين أن يكون هذا من باب التكرار،فذكروا أن السرّ وراء إعادة الجملة مرة ثانية هو اختلاف القائلين.قال الكرماني: قَوْله {وَقَالُوا أئذا كُنَّا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جَدِيدا} ثمَّ أَعَادَهَا فِي أخر السُّورَة بِعَينهَا من غير زِيَادَة وَلَا نُقْصَان ٩٨ لِأَن هَذَا لَيْسَ بتكرار فَإِن الأول من كَلَامهم فِي الدُّنْيَا حِين جادلوا الرَّسُول وأنكروا الْبَعْث وَالثَّانِي من كَلَام الله تَعَالَى حِين جازاهم على كفرهم وَقَوْلهمْ وإنكارهم الْبَعْث فَقَالَ {مأواهم جَهَنَّم كلما خبت زدناهم سعيرا} {ذَلِك جزاؤهم بِأَنَّهُم كفرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أئذا كُنَّا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جَدِيدا} (البرهان في توجيه متشابه القرآن ص، ١٦٥، الفيروزأبادي،بصائر ذوي التمييز (/ ٢٩٢)، الأنصاري، زكريا،فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن ١/ ٣٢٦)

ب– من مواضع التشابه أيضا أنه جاء في كل القرآن الكريم (تراباً وعظاما) إلا في سورة الإسراء وردت مرتين بقوله تعالى (عظاماً ورفاتا) فما الدلالة البيانية لكلمة رفاتاً ولماذا تقديم كلمة عظاماً ؟

أجاب الدكتور حسام النعيمى عن ذلك بقوله:(تراباً وعظاماً) وردت في القرآن في أكثر من موضع وهذا هو الأصل. فأنت عندما تنبش قبراً تجد أولاً التراب، وتحته تكون العظام لا تجد لحماً ولا جِلداً. فالمشركون عندما كانوا يرون هذه الجثث الميتة للحيوانات يجدون حولها ترابا وهي عظام فكانوا يقولون تراباً وعظاماً.لكن في حالة واحدة (وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) الإسراء) تقدمت فيها العظام على الرفات والسبب في ذلك أن المقام مختلف فقد قيلت هذه الجملة في مقام مناقشة المشركين مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويبدو أن الذين ناقشوه أو أحدهم كان يحمل بيده عظماً وأمسكه بيده وطحنه بيده فتكسّر العظم. فلمّا يتكسّر العظم يكون رفاتاً. والرفات هو الأشياء المكسّرة ليست المطحونة كالتراب فقال: بعد أن كنا عظاماً وكسّره قال: ورفاتاً. ولذلك كان ردُّ

الآية يُظهر هذا؛ لأنه يقول هذا شيء ضعيف وقد جعلتُه رفاتاً كسّرته، فقالت له الآية: (قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا (٥١)) لأنه كسر العظم، قال الحديد لا يتكسر والحجارة لا تتكسر فجاء الرد في الآية. لو كنتم حجارة أو حديداً التي ليس فيها حياة لأعادكم الله عز وجل ومن باب أولى عندما تكونوا عظاماً أورفاتاً يعيدكم الله عز وجل. (انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٤٨) وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٤٩) كسر العظم أمامه.(لمسات بيانية لسور القرآن الكريم ص٦٩)

ثانيا: المتشابه اللفظي في الصافات:

١–وردت في سورة الصافات آيتان متشابهتان في نظمهما مختلفتان في فاصلتهما وهما قوله تعالى: (أئذا متنا وكنّا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون) – سورة الصافات (١٦) (أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون) – سورة الصافات (٥٣)

وسرّ هذا الاختلاف يتمثل في اختلاف القائلين كما ذكر ابن عاشور (التحرير والتنوير ٢٣/ ٣٥). لأن الأولى في حق المنكرين للبعث، والثانية في حق المنكرين للجزاء، وإن كان كل منهما مستلزمًا للآخر، انتهى.(الهرري محمد الأمين، حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن ٢٤/ ١٥٢،ابن جماعة، كشف المعانى فى المتشابه من المثانى، ص٣٠٧،الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل،ص١٠٨٩–١٠٩١)

وأوضح ابن الزبير عن سر هذا الاختلاف بقوله: والجواب: أن االموضع الأول لم يتقدمه شيء يوجب عدولهم عن التعبير عن معتقدهم (في إنكار الإحياء بعد الموت فورد على ما يطابق معتقدهم)، وأما الآية الأخرى فقد تمهد قبلها ذكر الجزاء الأخروي وذكر السؤال، فأول ذلك ذكر ما يقال لهم إذا حشروا قال تعالى: (وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ) (الصافات: ٢٤) وقول بعد: (وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) (الصافات: ٣٩)، وقوله بعد: (وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ) (الصافات: ٢٧)، وهذا في الأخرة إلى قوله: (قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ يَقُولُ) (الصافات: ٥١ – ٥٢)، وهذا قول الكافر وقد باشر العذاب، فأخبر عن قرينه الذي قيض له المشار إليه بقوله: (وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ) (الزخرف: ٣٦)، فأخبر عنه سبحانه أنه كان يقول له في دنياه: (أَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُصَدِّقِينَ * أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) (الصافات: ٥٢ – ٥٣) أي: لمجزيون بأعمالنا، وما إجترحناه في دنيانا، وفي طي قولهم: (أَإِنَّا لَمَدِينُونَ) إنكار للبعث لإنكارهم ما ينبني عليه ويترتب بعده من الجزاء، وقد تقدم ذكر الجزاء فناسبه ذكر تعجبهم منكرين وقوعه، ولم يكن ليحسن وقوع (لَمَدِينُونَ) في الآية الأولى إذا كان يكون هناك غير مفصح بإنكارهم البعث ولا ورد قبلهع ما يستدعيه، فجاء كل على ما يجب ويناسبه.(ابن الزبير،ملاك التأويل ٢/ ٤١٠، وينظر: الشهاب الخفاجي،. حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى ٧/ ٢٧٠)

٢–التشابه بين الصافات وسورة (ق)

ذكرت سورة الإسراء في آيتيْها العظام والرفات معاً، ولم تذكر سورة (ق) العظام؛ ولبيان سر هذا الاختلاف قال ابن عرفة: زاد هنا عظاما وأسقطها في سورة (ق)، فقال تعالى (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ).فأجاب بعضهم: بأن هذا كلام ابتدأ به المُسلم، فقال (أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا)، [نحيا ونُبعث*]؛ فأنكر ذلك عليه [قومُه*]، وأعاد كلامه على ما هو عليه بأداة الإنكار، والمسلَّم كلام النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن عظام بني آدم كلها تفنى إلا

[عَجْب الذَّنَب*]، وهو قُدِّر بغرز إبرة؛ فلذلك قال: (عِظَامًا) في سورة (ق) حكاية عن كلام كافر ابتدأ من غير أن يتقدمه شيء.(ابن عرفة:تفسير ابن عرفة ٣/ ٣٦٣)

ثالثا: المتشابه اللفظي بين آية العنكبوت وغيرها

جاءت آية العنكبوت في سياق الحديث عن قصّة لوط عليه السلام. وقد تكررت هذه القصة في سورة مختلفة وبسياقات وعبارات متعددة.وهذه الآيات الكريمة. قال في سورة العنكبوت ٢٨-٣٠: (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين) .وقوله تعالى: (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين* إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون* وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم إنهم أناس يتطهرون* فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين) الأعراف: ٨٠-٨٣.

وقال في سورة النمل ٥٤-٥٨: (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون* أئنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل انتم قوم تجهلون* فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريتكم إنهم أناس يتطهرون* فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين* وأمطرنا عليهم مطرا فساء مطر المنذرين) .

ذكر ابن الزبير الغرناطي قاعدة عامة، وأصلاً مهمّا في فهم اختلاف التعبير في القصص القرآني من سورة إلى سورة فقال:"إن اختلاف مقالات الأنبياء لأممهم إنما هو لاختلاف مقاماتهم؛ إذ ليس دعاؤهم إياهم فى موقف واحد ولا لقوم مخصوصين بل يدعو النبى طوائف من قومه فى أوقات مختلفة ومواطن شتى. وقد يكون للطائفة منهم خصوص مرتكب فيراعى نبيهم ذلك فى دعائهم، وقد يخاطب ملأهم الأعظم فى مواطن، والفئة القليلة منهم فى موطن آخر وربما أطال فى موطن، وأوجز فى موطن، وذلك بحسب ما يرونه عليهم السلام أجدى وأجدر.فلا يشكل على هذا اختلاف أقوالهم، ولا اختلاف مجاوبة أممهم لهم، فهذا مما لا يحتاج إلى سؤال عنه. وقد مر ذكر بيان ذلك وإنما يبقى السؤال عن وجه خصوص كل سورة بما خصت به من ذلك؟ وإذا أجبنا عن ذلك وأبدينا بحول الله المناسبة والالتحام حتى يتبين أن كلا من ذلك لا يصلح تأخيره عن الموضع الذى ورد فيه تعويضا بالوارد فى غير ذلك الموضع منه لم يبق فى هذه الآيات ما يشكل والحمد لله."(ابن الزبير، ملاك التأويل،١/٢٠٦)،

ومن المؤكّد أنّ كلّ موضع جاء متناسبا مع سياقه الخاص ومحور السورة العام.ولمّا لم يكن من هدف هذه الدراسة البحث في المناسبات؛ لذا سنقتصر على مواضع التشابه بين موضع العنكبوت وبين المواضع الأخرى.وقد ذكر ابن الزبير الغرناطي أن آية العنكبوت تختلف عن المواضع الأخرى في أربعة أمور نعرضها على النحو الآتي:

الموضع الأول: قوله فى مطلع الآيات فى الأعراف والنمل: (أتأتون الفاحشة) وقال فى سورة العنكبوت: (أئنكم لتأتون الفاحشة)

الموضع الثاني: وصف حالهم فى مرتكبهم فى الأعراف والعنكبوت بقوله: (ما سبقكم بها من أحد من العالمين) وفى سورة النمل: (وأنتم تبصرون)

والجواب عن الموضعين السابقين: أن مقصد الاستفهام في سورتي الأعراف والنمل الانكار والتعظيم فى توبيخهم على الفاحشة الشنعاء التى لم يأتها غيرهم من الأقوام السابقة. فقد تقدم فى الأعراف من ذكر الأمم المكذبين ذكر قوم نوح وهود وصالح وذكرت مرتكباتهم السيئة من معاندتهم للرسل وتكذيبهم وسوء مراجعتهم، وقد ذكرت السورة أقبح جرائمهم وأخسّها بعد جاء ذكر قوم لوط فكأنه قيل لهم: هؤلاء المكذبين من قبلكم على سوء مرتكباتهم لم يسبقوكم إلى ما أنتم عليه وقد سمعتم بهم وخلت من قبلكم المثلات. فهذه قصص من تقدمكم وذكر مرتكباتهم التى أخذوا بها فهل وقع منهم ما وقع منكم؟ أو هل سبق أحد منهم إلى مرتكبهم الشنيع؟ فناسب ذكر الأمم المكذبين قبلهم تقريع هؤلاء بكونهم أول من فعل تلك الشناعة وأنهم لم يسبقهم.

ولما لم يتقدم فى سورة النمل تفصيل أحوال الأمم المكذبين وأخذهم، ولم يذكر ذلك، كان ذكرهم كأن لم يتعرفوا حال من تقدمهم فعدل عن توبيخهم بما وبخوا –حيث ذكر من كان قبلهم– إلى ضرب آخر من التوبيخ لم يكن نص عيه فى الأعراف من بيان شنيع المرتكب فى فعلهم.وأنه غير خاف، فقيل: "وأنتم تبصرون " أى أن من شأن من له عقل أو بصر يبصر على المأخذ الآخر أن يكتفى بعقله وإبصاره فى ميز ما يشنع.

ثم قد تقدم فى هذه السورة قوله فى قصة موسى عليه السلام: (فلما جاءتهم آياتنا مبصرة) أى: بينة واضحة أو مرئية مشاهدة بالأبصار جحدوا بها، وهذا من أقبح مرتكب.فلما تقدم هذا ناسبه فى قصة لوط عليه السلام قوله: (وأنتم تبصرون) ولقبح هذا التعامى ما أعقب بقوله بعد: (إنكم قوم تجهلون)

ولما تقدم فى سورتى الأعراف والنمل تقريرهم تقريعا وتوبيخا وعرفوا بذلك مرة بعد مرة وردت قصتهم فى العنكبوت مؤكدة بأن واللام لثبوتها؛ فوردت مورد ما يجئ بعد القسم متلقىً به القسم، إذ قد تقدم تقريرهم التوبيخى مرتين فجاء الاخبار بعد بما به يخبر عن المتقرر الثابت، ولم يكن ليناسب العكس .وهذا على مقتضى الترتيب فى السور والآى فجاء كل على ما يجب.

الموضع الثالث: فللسائل أن يقول ما وجه العدول فى سورة العنكبوت عن قوله: "شهوة من دون النساء " إلى قوله: "وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر "؟ ما الوجه فى هذا وقد اتفق الإخبار فى مطلع الآى فى هذه السور الثلاث؟والجواب عن ذلك: أن سورة العنكبوت فقصد فيها تفصيل ما أشير إليه فى الأعراف من شنيع ما ارتكبوه من إسرافهم فقيل: (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر) وورد أولا – بحسب الترتيب المتقرر عليه السور والآيات – ذكر أفحش مرتكباتهم ثم أجمل القول فى سائر جرائمهم ثم أتبع فى السورة الثانية بشنيع حالهم فى تلك الفعلة المنصوص عليها من حيث بيان فحشها للأبصار والبصائر ثم أتبع ذلك فى السورة الثالثة بتفصيل بعض قبائح أفعالهم والتنصيص عليها وجاء كله على ما يجب ولا يمكن العكس فيما ورد والله أعلم.

الموضع الرابع: ما وجه قوله فى الأعراف: "وما كان جواب قومه "منسوقا بالواو وفى النمل والعنكبوت: "فما كان جواب قومه " بالفاء مع أن القصة واحدة فلا فرق بين الجوابين؟ والجواب: إنه حيث يراد مع (ما) سببية أو ما يشبه معنى المجازاة، وكان الكلام المجاوب بصريح الفعل؛ إذ هو أوضح إحرازا لهذا المعنى فحيث يجئ هذا، فالوجه والأولى أن يترتب الجواب بالفاء وسواء تسبب عن الأول أو أقيم مقام ما تسبب عن الأول.

ولما تقدم فى سورة النمل قوله تعالى: "أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون "أى وقد منحتم بصائر للفهم والاعتبار أو أبصارا لإدراك الأشياء وإحراز الحياء المانع من مواقعة العار.فما أثمر أنس ذلك لكم إلا التعامى عن رشادكم، وتمادى عنادكم فختام الآيتين بقوله: "وأنتم تبصرون " وقوله: "بل أنتم قوم تجهلون " فالجملة الفعلية فى خبر المبتدأ فى الأول وفى الصفة الموطئة للخبر فى الثانية مسوغ لتقدير معنى السببية لذلك من الواو فى سورة الأعراف إذ الختم فى الآيتين قبل آية الجواب بالجمل الإسمية: "ما سبقكم بها من أحد من العالمين بل أنتم مسرفون " فليس هذا فى تقدير السببية كالأول فالجواب هنا بالواو وحسن مع جواز الفاء. والجواب بالفاء حيث تقدم أقوى لمكان الفعل وكون المعنى عليه فورد على ما يقويه السياق ويشهد له المعنى.

وأما آية العنكبوت فقد تقدم فيها أيضا قوله تعالى: (أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون فى ناديكم المنكر) فهذه جملة فعلية وتقدير معنى السببية فيها كآية النمل، فالجواب فيها بالفاء كما فى آية النمل أولى وأجرى مع المعنى وما يعطيه السياق وجاء كل ذلك على ما يناسب".(ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل،١/٢٠٥-٢١١، الخطيب الإسكافي، درة التنزيل،٢/٦٣٠-٦٤٠)

المطلب الثالث: الخصائص البلاغية للصور البيانية

١-**الكناية: وهي** لفظ أريد به غيرُ معناهُ الذي وضع له، مع جواز إرادة المعنى لأصلي، لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته.وهي ثلاثة أقسام:١- كناية عن صفةٍ ،٢- كناية عن موصوف ٣- كناية عن نسبة (ينظر: الهاشمي،أحمد جواهر البلاغة،ص٣٧٠-٣٧٢)

وقد جاء في الآيات الكريمة من الكنايات: (أإذا كنا ترابا) كناية عن الموت، وما يترتب عليه من بِلىً، وهذا لا ينكره المشركون؛لأنه واقع مشاهد، وإنّما الذي ينكره المشركون هو الخلق الجديد الذي هو كناية عن البعث بعد الموت. والكنايتان من باب الكناية عن موصوف كما يقول البلاغيون.

في قوله تعالى:(أئذا كنا عظاما ورفاتا) كناية عن الموت والبلى.وفي قوله تعالى: (أئنكم لتأتون الرجال) كناية عما يستقبح ذكره، وما ينبغي أن يصان اللسان عن الحديث فيه.(المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام،ج٣،ص٢٢٨) وهذا شأن القرآن في خطابه الراقي المهذب للنفوس والألسن والجوارح.

٢- اللفظ بين الحقيقة والمجاز

ذكر ابن عطية في تفسيره أن قوله: (وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ في أعناقهم) الرعد(٥) يحتمل معنيين: أحدهما: الحقيقة وأنه أخبر عن كون الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ في الآخرة فهي كقوله تعالى: إِذِ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ [غافر: ٧١] .ويحتمل أن يكون مجازا وأنه أخبر عن كونهم مغللين عن الإيمان، فهي إذن تجري مجرى الطبع والختم على القلوب، وهي كقوله تعالى: إِنَّا جَعَلْنا فِي أَعْناقِهِمْ أَغْلالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقانِ، فَهُمْ مُقْمَحُونَ [يس: ٨] وباقي الآية بين.وقال بعض الناس الْأَغْلَالُ- هنا- عبارة عن الأعمال، أي أعمالهم الفاسدة في أعناقهم كالأغلال. ورجح المعنى الأول وهو الحمل على الحقيقة فقال:وتحرير هذا هو في التأويل الثاني الذي ذكرناه. (ابن عطية، المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦) ووافقه الرازي أبو حيّان وابن عادل الحنبلي.(مفاتيح الغيب١٩/ ١٠، البحر المحيط،٦/ ٣٥٢، اللباب في علوم الكتاب ،١١/ ٢٥٣)

٣-المجاز العقلي: هو إسنادُ الفعل، أو ما في معناه (من اسم فاعل، أو اسم مفعول أو مصدر) إلى غير ما هو له في الظاهر، من حال المتكلم، لعلاقة مع قرينة تمنع من أن يكون الإسناد إلى ما هو له.(الهاشمي:أحمد،جواهر البلاغة،ص٣٢٤) وله علاقات متعددة ، ومن هذه العلاقات إستخدام اسم الفاعل وإرادة اسم المفعول كما في قوله تعالى: {فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ * فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ} [الحاقة: ٢١ – ٢٢] .راضية: اسم فاعل، وقد جاء في هذا التعبير القرآني إسناد الرّضا في كلمة "راضية" إلى العيشة، مع أنّ الراضي هو صاحبُ العيشة، إذْ يَرْضَى عن عيشته الحسنة، فالعيشة في الحقيقة مرضيّة.(ينظر: الميداني،البلاغة العربية،١٩٨/١) ومنها الآية الكريمة:(أإنا لمردودون في الحافرة) النازعات(١٠). قال الزمخشري في لفظ (الحافرة): وقيل: حافرة، كما قيل: عيشة راضية، أى: منسوبة إلى الحفر والرضا، أو كقولهم: نهارك صائم، (الزمخشري، الكشاف ٤/ ٦٩٤)

وقال أبو حيّان:والْحافِرَةِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: فَاعِلَةٌ بِمَعْنَى مُفْعُولَةٍ. وَقِيلَ: عَلَى النَّسَبِ، أَيْ ذَاتُ حَفْرٍ، وَالْمُرَادُ الْقُبُورُ، أَيْ لَمَرْدُودُونَ أَحْيَاءً فِي قُبُورِنَا. (البحر المحيط ١٠/ ٣٩٧)

خاتمة البحث

توصّلت الدراسة إلى جملة من النتائج أجملها فيما يأتي:

١. لعلوم البلاغة دور عظيم الخطر في تأدية الأغراض الدينية التي من أبرزها موضوع البعث.
٢. تعدُّ الدراسة البلاغية التطبيقية على آيات القرآن من أهمّ ما يخدم تعليم البلاغة وعلومها بصورة تبعد الجفافَ والتعقيد عن الدرس البلاغي من جهة، وتُكْسبُ المتعلّمَ مقدرةً على التذوق ومهارةً في التطبيق.
٣. أكدت الدراسة على أن المفردة القرآنية مظهر من مظاهر الإعجاز في دقّة اختيارها ووضعها.
٤. أظهر البحث أن العلاقة بين علميِ التفسير والبلاغة علاقة تكامليّة.
٥. أظهرت الدراسة أن كتب التفسير اشتملت على كثير من الأمثلة والشواهد البلاغية التي يستعان بها في الدرس البلاغي وشرحه، بدل الاقتصار على أمثلة محدودة في كتب البلاغة.
٦. بيّنت الدراسة من خلال درستها لمتشابه النظم في الآيات أنه لا تكرار في القرآن.

مراجع البحث

١. الآلوسي ، شهاب الدين روح المعاني، في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق : على عبد البارى عطية دار الكتب العلمية . بيروت،١٤١٥ هـ
٢. الأنصاري، زكريا،فتح الرحمن بكشف ما يلتبس في القرآن، المحقق: محمد علي الصابوني، دار القرآن الكريم، بيروت – لبنان الطبعة: الأولى، ١٤٠٣ هـ – ١٩٨٣ م
٣. البقاعي، برهان الدين، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، تحقيق : عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية – بيروت، ١٩٩٥ م
٤. الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، المحقق: محمود شاكر ، مطبعة المدني بالقاهرة، دار المدني بجدة الطبعة: الثالثة ١٩٩٢م
٥. ابن جماعة،كشف المعانى فى المتشابه من المثانى،تحقيق،عبد الجواد خلف،دار الوفاء،المنصورة،ط١، ١٩٩٠م
٦. الجيلي علي أحمد، اختلاف القراءات بين الحذف والإثبات في ستة من حروف المعاني،مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة الكويت،العدد ٧٣، ٢٠٠٨م
٧. أبو حيان الأندلسي، البحر المحيط، تحقيق : صدقي جميل، دار الفكر، بيروت، ١٤٢٠هـ
٨. الخطيب الإسكافي، درة التنزيل وغرة التأويل، وتحقيق محمد آيدين، جامعة أم القرى،ط١، ٢٠٠٠م
٩. الخطيب، عبد الكريم، التفسير القرآني للقرآن،دار الفكر العربي، القاهرة (د.ت)
١٠. الرازي فخر الدين، مفاتيح الغيب، دار إحياء التراث العربي، بيروت،ط٣، ١٤٢٠هـ
١١. الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق، صفوان الداودي، دار القلم، دمشق ،ط١، ١٤١٢هـ
١٢. ابن الزبير الغرناطي ، ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل، وضع حواشيه: عبد الغني الفاسي،دار الكتب العلمية، بيروت.
١٣. الزمخشري أبو القاسم محمود ، الكشاف،دار الكتاب العربي،بيروت،ط٣، ١٤١٧هـ
١٤. ابن زنجله عبد الرحمن، حجة القراءات،تحقيق سعيد الأفغاني،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط٢، ١٩٨٢م
١٥. السبت، عثمان،قواعد التفسير جمعا ودراسة،دار ابن عفان، القاهرة،ط١، ٢٠١٣م
١٦. السبكي،بهاء الدين، عروس الأفراح في شرح تلخيص المفتاح، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية للطباعة والنشر، بيروت – لبنان،ط١، ٢٠٠٣م
١٧. أبو السعود العمادي، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، دار إحياء التراث العربي، بيروت
١٨. السلامي، عمر،الإعجاز الفني في القرآن،مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله،تونس،١٩٨٠
١٩. السمين الحلبي، الدر المصون في علوم الكتاب المكنون،تحقيق: محمد أحمد الخراط، دار القلم، دمشق
٢٠. سيد قطب، في ظلال القرآن،دار الشروق، القاهرة، ط١٧، ١٤١٢هـ.
٢١. السيوطي جلال الدين، الإتقان في علوم القرآن،تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب،١٩٧٤م
٢٢. الشعراوي،محمد متولي، تفسير الشعراوي، مطابع أخبار اليوم،١٩٩٧م
٢٣. الشهاب الخفاجي، حاشية الشهاب الخفاجى على البيضاوى(عِنَايةُ القَاضِى وكِفَايةُ الرَّاضِى) دار صادر،بيروت

٢٤.الشوكاني محمد بن علي، فتح القدير الجامع بين فني الرواية و الدراية من علم التفسير دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤ هـ
٢٥.الطبري محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل آي القرآن، تحقيق:مكتب هجر، دار هجر،ط١
٢٦.طنطاوي،سيد ، التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر القاهرة،ط١، ١٩٩٧–١٩٩٨م
٢٧. ابن عادل الحنبلي،اللباب في علوم الكتاب،تحقيق: الشيخ عادل عبد الموجود وآخرون ،دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٩٩٨م
٢٨.عائشة عبد الرحمن، بنت الشاطيء، التفسير البياني للقرآن الكريم،دار المعارف،القاهرة، ط٧
٢٩.ابن عرفة:تفسير ابن عرفة،تحقيق:جلال الأسيوطي،دار الكتب العلمية،بيروت،ط١، ٢٠٠٨م
٣٠.ابن عطية الأندلسي،المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز،تحقيق:عبد السلام عبد الشافي،دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤٢٢هـ
٣١.ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك،تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد،المكتبة العصرية، بيروت،١٩٩٥م
٣٢.فضل حسن عباس،البلاغة فنونها وأفنانها،علم المعاني،دار الفرقان،عمان، الأردن،ط١١، ٢٠٠٧م
٣٣.الفيروزأبادي مجد الدين، بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز،تحقيق:محمد علي النجار، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – لجنة إحياء التراث الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م
٣٤.القزويني الخطيب:الإيضاح في علوم البلاغة، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي،دار الجيل، بيروت، ط٣
٣٥.ابن كثير الدمشقي ،تفسير القرآن العظيم، تحقيق:سامي بن محمد سلامة،دار طيبة،ط٢، ١٩٩٩ م
٣٦.الكرماني،محمود، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الفضيلة
٣٧.الماوردي أبو الحسن، النكت والعيون، تحقيق : السيد بن عبد المقصود، دار الكتب العلمية، بيروت
٣٨.محمد حسن جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم،مكتبة الآداب، القاهرة، ط٢، ٢٠١٢م
٣٩.المراغي،أحمد مصطفى، علوم البلاغة البيان والمعاني والبديع،دار الكتب العلمية،بيروت، ط٣، ١٩٩٣م
٤٠.المطعني، عبد العظيم، التفسير البلاغي للاستفهام في القرآن الكريم، مكتبة وهبه، القاهرة،ط١، ١٩٩٩م
٤١.ابن منظور محمد بن مكرم ، لسان العرب، دار صادر، بيروت،ط٣، ١٤١٤هـ
٤٢.أبو موسى،خصائص التراكيب، دراسة تحليلية لمسائل علم المعاني،مكتبة وهبه، ط٩، ٢٠١٤م
٤٣.أبو موسى،محمد،دلالات التراكيب، دراسة بلاغية،مكتبة وهبه ط٥، ٢٠١٤م
٤٤.الميداني عبد الرحمن ،البلاغة العربية، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت،ط١، ١٩٩٦م
٤٥.ابن فارس، معجم مقاييس اللغة،تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر،١٩٧٩م
٤٦.النعيمي حسام، لمسات بيانية لسور القرآن الكريم.(المكتبة الشاملة)
٤٧.الهاشمي،أحمد، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، تحقيق:محمد التونجي، مؤسسة المعارف،بيروت،ط٤، ٢٠٠٨م
٤٨. الهرري،محمد الأمين، تفسير حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن، دار طوق النجاة، بيروت،ط١، ٢٠٠١